THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY
OU_190185
UNIVERSAL
LIBRARY

OUP—730—28-4-81—

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٩٢٨ Accession No.

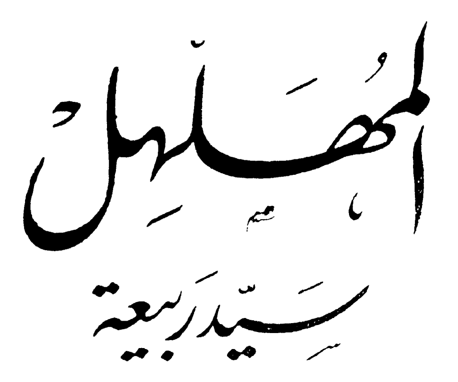
Author فريد ابو حديد

Title المهلهل - سيد ربيعة

This book should be returned on or before the date last marked below

لجنة التأليف والترجمة والنشر

محمد فريد أبو حديد



مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٤

١

كان اليوم من تلك الأيام المطيره القليلة التى يجود بها شتاء الصحراء . وقد أسفر وجه السماء بعد أن جلل المطر أعواد الخزامى والشيح ، وصفا الجو ورق النسيم البارد ، وسطعت أشعة الشمس رفيقة دفيئة تغمر الرمال الصفراء النديه ، وتلمع تحتها الجداول الدقيقة المنعرجة .

وكان وائل التغلبى — وائل بن ربيعة فارس تغلب وسيدها — يسير فى جانب الوادى المعشب الذى ضربت فيه خيامه ، ويجول بصره فى التلال الجرداء المحيطة به ، ليس عليها إلا أعواد من الطرفاء الكالحة ، وأشواك العوسج ، تبسم فيه الزهرات الزرقاء ، متوارية كأنها تخجل من ثوبها المقدد . وكان فى سيره يتجه إلى جدول يترقرق ماؤه من تلعة شجراء عالية ، وينساب متلألئاً إلى بطن الوادى ، حتى يغيب فى روضة ملتفة الشجر ، يتماوج حولها العشب الأخضر البارض مع ريح الشمال ، وتتراقص أعوادها فى رفق ، وتتلامس كلما هبت عليها نفحة من النسيم الفاتر .

وتبسم البدوى للمنظر الفاتن . ولكن ابتسامته كانت خافتة لم تنفرج لها العبسة العميقة التى كانت تعقد جبينه الواسع . وتنفس نفساً عميقاً ملأ به صدره من الهواء الصافى ، ومضى فى سبيله نحو

الروضة بخطى قصيرة ثابتة . سار كأن فى قلبه ثقلا ينوء به ، وكأن فى صدره اضطرابا يصرفه عن أن يهتز لجمال ذلك اليوم البديع .

وسار فى أثره عبد أسود ، يترقب حركته فى خشوع ، وينظر إليه بطرف عينيه فى حذر ، ويتلفت نحوه كلما بدرت منه لفتة ، كأنه يخشى أن تفوته إشارة من مولاه ، أو تشرد عن سمعه همسة من همساته . وسار من ورائه كلب يتمسح بأذياله ، وقد وضع ذيله بين فخذيه ، وأطرق برأسه يشم الأرض حيناً ، ثم يرفع عينيه لحظة نحو سيده متردداً ويعود إلى إطراقه يشم الأرض فى مواطئ قدميه .

ولما اقترب السيد من الروضة ، وقف هنيهة ثم قال ولم ينظر إلى ورائه : « يا غصين ! » ، فأسرع العبد إليه حتى وقف على خطوة منه وقال : « لبيك ! » .

فقال وائل : «جهز لى طعاما وشرابا ، واتبعنى إلى هناك ! » — وأشار بيديه نحو قلب الروضة — وسار بغير أن ينظر نحو العبد يحنى هــذا رأســه ، ثم سار مسرعا نحو البيوت المنتشرة فى أعلى الوادى ، حول القبة الحمراء العالية ، المشرفة على الحى .

كان وائل يبدو لمن نظر إليه شابا يتألق على وجهه الأسمر رونق الشباب ، وهو يسير مرفوع الرأس . كأن قوامه النحيف عود رمح سمهرى ، وينظر بعينين لامعتين تبصان ببريق فيــه قسوة ، وقد انعقد ما بينهما فى عبسة . كأن جبينه الواسع لم ينفرج يوما عن

بسمة ، وكان أنفــه الدقيق الأقنى ينتهى إلى فم رقيق الشفتين ، وشارب أسود الشعر مفتول الطرفين ، تشذ منه شعيرات قائمة فى وسطه قد تمازجت فيها خيوط بيضاء ، وأخرى سوداء ، وكانت لحيته الخفيفة تدور حول وجهه ، لا ترى العين أثراً من الشيب فى شعرها الأسود الجعد .

وكانت عمامته البيضاء تنتهى من وراء بطرف مسبل يبلغ مجمع كتفيه ، وتبرز من تحتها ذؤابتان من شعره الأسود تلمعان بمــا عليهما من دهن وعطر .

وسار وائل بخطاه البطيئة نحو الروضة الخضراء ، والكلب يسير من خلفه ، يتمسح فى أذياله .

ولما بلغ السيد مدخل الروضــة وقف هنيهة ينظر فيما حوله ، كأنه يفحص ما على الرمال من آثار ، ثم أشار إلى الــكلب بطرف سيفه المتدلى من حمائله وصاح به : « ههنا يا عساف ؟ » ، ففهم الــكلب الإشارة وأقعى حيث أشار إليه سيده ، وعوى عواء خفيفا كأنه يبين أنه قد خضع للأمر .

ودخل الرجل الروضة ، فجعل يمشى فى مساربها ، ينظر ما بها من آثار ، ويميل إلى كل زهرة يراها فيتأملها مليا ، ثم يمضى عنها متباطئا ، ويمد يده إلى الأغصان المتدلية عابثا بأوراقها حينا ، ونازعا بعض أعوادها حينا ، ثم أوغل فى الروضة حتى بلغ مكانا

عاليا ، قد ظللته أشجار ملتفة ، تحمنه من بلل المطر ، وسقطت عليه الأوراق فكسنه فراشا وثيرا فمهدها بقوسه ، ثم ألقى القوس إلى جانب ، وألقى كنانته إلى جانب ، ونشر شملة كانت عليه فجعلها فوق الأوراق الجافة ، ومال فاصطجع عليها فوق جنبه ، متكئاً رأسه فوق كفه ، وقد ثنى دراعه ، وجعل يتأمل السماء من خلال الغصون المتدلية ، ويتلقى شعاع الشمس المائل داخلا إليه من بين الجذوع والفروع .

اعتاد وائل ، كلما نزل القطر وغسل الغبار عن أغصان الروضة وسالت به جداول الوادى ، أن يذهب إليها ليمتع نفسه بلذات الحياة . وكانت بهجة الشباب تتحرك فيه عند ذلك فيلتمس نداماه ويقضى معهم يومه يطاردون متع اللهو ؛ يرى فى كل زهرة ثغراً باسما ، وفى كل غصن رطيب قواما مائسا ، ويأنس للأحاديث ، ويطرب للغناء ، ويعود بعد اليوم القصير طروبا ممتلئ القلب بالبشر . ولكنه لما خرج فى ذلك اليوم كان على غير عهده بنفسه . خرج إلى روضته وحيداً يحس فى قلبه حزنا كامنا لا يتبين مبعثه ، وخيل إليه أن العالم يفيض حوله بنبضات تطن فى أذنيه ، وأن السماء الصافية تخفى وراء أنوارها الشفافة أسراراً غامضة ، وأن الصحراء التى تمتد تحت ناظريه إلى الأفق المستدير ، ليست كما عهدها فضاء فسيحا يسرح فيه بصره مطمئنا ؛ بل كانت تزدحم وتضطرب حتى تكاد

لا تدع له فيها حلوه ، وأن النسيم العليل الذى يملأ صدره منه يريد نفسه القلقة ضراما واحتلاجا .

خرج فى ذلك اليوم وحده إلى روضته التى طالما شهدت مجالس أنسه وطربه ، والتى طالما أمتع نفسه بلذات الحياة فى ظلالها ، وكان يطمع لو استطاع أن يجد فى جمالها الساذج ذلك السلام الذى أعجزه فى نوادى قومه ، أو فى فناء منزله الفسيح ، فى الوادى الأعشب . ولكنه عند ما اضطجع فى ظلال الروضة وجدها أعلى ضجة من المجامع المزدحمة المضطربة .

لقد كانت نوادى قومه منذ حين تضيق بنفسه وتملؤها ضجرا ، وكان فناء منزله يبعث فيها وحشة وكآبة ؛ ولكن تلك الروضة نفسها قد خيبت أمنيته فلم يجد فيها إلا وحشة وكآبة .

وتواردت عليه ، وهو مضطجع تحت ظلال الغصون المتدلية ، صور من حياته مرت فى خياله سراعا . فتذكر حروبه ومواقعه عند أراط والكُلاب ، ثم موقعته الكبرى عند خزازى حيث تهاوى بفرسانه ليلا نحو النيران الموقدة على رؤوس الجبال ، وأحاطوا بأهل اليمن فحطموهم حتى لم تقم لهم بعد قائمة ، فانتصفت منهم ربيعة وألقت نيرهم عن رقابها ، وتبوأت بعدهم مقاعد السيادة فى هضاب نجد . إنه هو الذى اجتمعت حوله الكلمة ، فقاد عرب الشمال جميعاً من ربيعة ومضر حتى انتهى بهم إلى النصر

البارع ، وطرد السادة من ملوك اليمن من تلك الربوع التي رتعوا بها من قبله أجيالا . فما بال قبائل ربيعة اليوم تتحدث في نواديها عن كبريائه ، وما بال بني عمه من بكر يتحدثون وينكر عليه شأنهم ما سمحت به نفوس آبائهم طائعة عقب ذلك الانتصار ؟ أينكر قومه سابق فضله وينازعونه في الحق الذي بايعوه من قبل عليه ؟ أيحسبون السيف الذي قضى به على قبائل اليمن قد صدئ في غمده من طول ما مر عليه من السلام ؟ بل إنه لهو العقوق الذي يدفعهم إلى هذه الهمسات الخانقة التي تبلغ أذنيه ، مهما بالغ الهامسون أن تكون فيما بينهم سرا ، وهو الحقد يملأ صدور منافسيه ، ويحملهم على تناسي فضله والتجهُّم له .

وتنبه وائل من خواطره على صوت رفرفة بين الأغصان التي فوقه ، فحرك رأسه فاتراً وأحس بشيء من الارتياح إلى أن يخلص ، ولو حيناً من شجونه المضطربة ، فرأى بين الأوراق قبرة تتنقل بين الفروع في حذر كأنها تريد أن تهبط ، وتخشى ذلك الدخيل المضطجع تحتها ، فجعل يتأملها حيناً ثم رأى اضطرابها فرق لها وقام من مكانه متسللا يحاذر أن يعنُف في حركته حتى لا يفزعها ، ونظر نحوها يرقب حركتها فرآها تنظر إليه في ذعر واضطراب ، تهم أن تطير هاربة فتقفز عن غصنها ، ثم تتردد فتنزل على غصن آخر وتصرصر وتنقنق في خشوع كأنها تتوسل وتبدي الحنين .

وفيما هو فى ذلك سمع صوت رفرفة ضعيفة عند قدميه .

وتلفت حوله إلى أطراف الأغصان المتدلية ، فرأى عش القنبرة وفيه فرخان صغيران لا يغطى جسميهما إلا الزَّغَبُ الأخضر ، وهما يتطلعان نحو أمهما ويحركان جناحيهما العاريين فى لهفة إلى ظلِّ جناحيها ، فخفق قلبه رقةً لهما وأسرع فى خفة فرفع قوسه وكنانة سهامه ، ثم وضع شملته على كتفه وتراجع فى هدوء حتى خرج من ظل الخميلة ، فرأى القنبرة تهوى مندفعة نحو فرخيها وتدرج إليهما فى العش ترفرف عليهما بجناحيها وهى لا تزال تنظر فى قلق إلى الحبال القائم من وراء الأغصان . فتبسم ابتسامة حزينة ، ثم سار عنها إلى خميلة أخرى يلتمس فى ظلها مضجعاً . وقال وهو سائر كأنه يحدث نفسه : « لقد حرمت السكينة فى حماى » .

ولكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى خفق قلبه وعاودته خواطر أخرى أشد حنقاً . أذ تذكر ما يتحدث به قومه ، إذ بلغوا من الجرأة عليه أن أطلقوا ألسنتهم فيه بما لم يكونوا من قبل يجرؤون عليه . إنهم صاروا يتحدثون عنه أنه يحمى الوحش والطير مبالغة منه فى الكِبْر والعتو . ويتحدثون عن تلك المراعى التى لا يستطيعون أن يلتمسوا فيها صيداً من ظبى أو أرنب أو ضب لأنه قد حمى تلك المراعى وسدها فى وجوههم . ويتحدثون عن الماء الذى لا يستطيعون أن يردوه إلا بعد أن تصدر عنه إبله ، وعن كَلأ الأرض الذى

لا يقدرون على أن يُطلقوا فيه إبلهم ، لأنه قد حمى ذلك كله وحازه لنفسه لا يبيح لأحد فيه شيئاً إلا بإذنه ، وبعد أن يسأل منه ما يرضيه . لقد تحدث قومه بهذا كله ، ووصفوه بالطغيان والكبر والبَطَر . وكأنهم تناسوا أن ذلك كلَّه كان من حقه عليهم إذ قد ارتضوه وتطوعوا به له إقراراً بفضله عليهم واعترافا له بسلطانه فيهم .

وفيما كان يناجى حنقه بهذه الذكريات الأليمة سمع صوت كلبه ينبح ، فوقف ينظر نحو مدخل الروضة ليرى من يكون ذلك الجرىء الذى يقترب من روضته وقال فى نفسه : لعل هذه آيةٌ جديدة تطلعه على ما داخل قومه منذ حين من الجرأة عليه . لقد طالما جاء إلى هذه الروضة وأمر كلبه أن يُقعىَ عند مدخلها ، فما كان أحد يجرؤ على أن يقترب منها ؛ فكان ذلك الكلب إذا جلس عند أسفل التلعة نظر إليه الناس من بعيد وتيامنوا عنه أو تياسروا حتى لا يستبيحوا حمى سيد ربيعة المخيف وائل بن ربيعة . بل لقد كانوا يجعلون اسم ذلك الكليب علماً يذكرونه فيما بينهم إذا أرادوا التحدث عن بطلهم الباسل الذى ملأت هيبته القلوب حتى لا تمر اسمه على ألسنتهم إكباراً له وتقديساً .

أوقد تجرأت تغلب أو بكر حتى لم يبق فى نفوسها رهبةٌ من الكليب ؟

فاتجه نحو مدخل الروضة هابطاً على جانب الربوة مسرعا

والغضب يملأ قلبه ، لا ترى عيناه إلا أحمره الدماء . وقد عزم على أنه لن يصبر بعد ذلك ، بل ليجعلَنّ سطوته طاحنة حتى يصرف قومه عن تلك الهمسات التى يهمس بها الحاسدون فيما بينهم إذا خلا بعضهم إلى بعض . لقد جاءت إليه الأنباء يسعى بها صحبه الأوفياء وآله الأقربون ؛ فهو لا يجهل ما تغلى به الصدور عليه ، وإن كانت الخشية من بطشه لا تزال تخفى النيران تحت ستار واهٍ من الرياء والبسمات الزائفة . إنه لن يستطيع بعد ذلك صبراً على مثل هـذا الرياء ، بل لا بد له أن يفتك وأن يسطو حتى يعلم هؤلاء أنه ما زال السيد الذى طالما انعقدت ألسنتهم عن ذكر اسمه ، واكتفوا عند ذكره أن ينطقوا باسم الـكليب . وسوف يكشف للناس جميعاً أنه ما زال السيد الذى لا يجرؤ واحد على أن يملأ منه عينيه .

ولما بلغ مدخل الروضة تلفت حوله فلم يجد أحداً ، ولما رآه الـكلب أقبل نحوه يعوى متألماً وهو يتلوى حتى اقترب منه وجعل يتسمح به ويبصبص بذنبه ، ثم ذهب عنه يسح فى حنق متجهاً إلى جانب الربوة . فسار وائل فى أثره حتى بلغ قمة الربوه فأشرف على الوادى المجاور ، فإذا به يسيل بأعناق الإبل الحمراء ، ومن ورائها فارس يعرفه — هو جساس بن مرة بلا شك - جساس أخو امرأته جليلة بنت مرة سيد بنى بكر . هو أخو تلك الزوجة الحبيبة التى اصطفاها ونعم بالحياة فى بيتها الهادئ . أخوها

حساس فارس بنى بكر الباسل الذى يسير مثل الرمح الرديني بأنف أشم . كان لا يرى فى قبائل ربيعة من يليق أن يكون عليه سيداً .

ليته لم يكن أخاً لزوجته ، وليته لم يكن أبنا للشيخ الحكيم مره بن دهل بن شيبان . فإنه لو لم يكن فى حمى تلك القرابة لعرف وائل كيف يكسر ذلك الأنف الأشم ، وكيف يحنى تلك الهامة المرفوعة ، وكيف يجعله يغضى تلك العين الجريئة التى يحملق بها فى وجهه إذا كلمه . إنه لا يقدر على أن يمنعه من الرعى فى مراعيه ، ولا يقدر على أن يجعل إبله تنتظر حتى تصدر إبله هو عن الماء لأنه ابن الشيخ مره ، وأخو زوجته الحبيبة جليلة .

ولكنه شاب حقود كاره . لم يكفه أن يسوق إبله إلى الحمى الذى حماه بل يراه يتعمد أن يجتاز بالروضة التى لم يجرؤ أحد من قبل أن يمر بها ؛ وها هو ذا يتعمد أن يضرب كلمه نفوسه الغليظة . لا ! لا ! فما كان وائل ليصبر على مثل هذا إذا أراد أن تبقى له فى قومه صولة أو كرامة .

وكان جساس لا يخفى جرأته وتحديه ؛ فإنه ليتكلم فى نوادى بكر ، ويحرّئ قومه على أن يتكلموا فيه ويسخر منه فى غيبته ، ويثير ضحكات السخرية فيهم إذا جلسوا فى سامرهم حول النيران . وهو يحرض عليه ويثير النفوس ، ويوشك أن يوقد عليه بين

الناس فتنة عمياء . بل لعله هو الذى بدأ هذا السخط الذى تنقل إليه أخباره من كل جانب ، ولعله هو الذى فتح عقول القوم إلى الندم مما كانوا من قبل لا يرونه إلا حقاً وعدلا . وقف وائل ينظر إلى ذلك الشاب المتحدى ، وثارت فى قلبه الحفيظة ، وعزم على أن ينسه وأن يضرب ، وإلا كانت عاقبة أمره وبالا .

وكتم وائل غيظه ونزل عن الربوة ، ولم يعد إلى روضته التى كان قد أزمع أن يقضى فيها اليوم وحده يلتمس نزهة تهدئ من قلبه الثائر ؛ بل عاد إلى بيته سريع الخطى وقلبه يفور وأنفاسه تضطرب ؛ وقد تمثلت أمام عينيه مناظر الصراع المقبل الذى يوشك أن يقع بينه وبين الفارس الجرىء .

ولما بلغ مضرب خيامه المشرفة من فوق أعلى الوادى ، لم يلتفت إلى من كانوا فى فنائه الفسيح من عبيد وأتباع ؛ بل سار مسرعا والكلب يجرى وراءه لاهثاً ، وفى نظراته اللامعة ما يشبه أن يكون زهواً كأنه أحس أن سيده العظيم قد ثار من أجل ما أصابه من ألم ضربة القوس التى كادت تدق صلبه .

ولما بلغ خيمته دخل إليها ، وتلفت فى جوانبها ، ثم نادى فى شىء من العنف « جليلة ! » . فنهضت امرأته مسرعة وأقبلت نحوه تبتسم ، ولكن نظراتها إليه كانت تنم عن دهشة ؛ فقد كانت تعد له زق الخمر ، وتهيئ له شواء من الكبد والسَّنام لكى ترسله إليه

مع العبد الغضبين فى الروضة كما أمره منذ حين قصير . ولم تكن تتوقع عودته قبل أن يمضى النهار أو أكثره ؛ فقد عودها إذا ذهب إلى الروضة أن يقيم فيها حتى تنحدر الشمس إلى الغرب ، وتطول الظلال . وأحس قلبها أن فى رجوعه إليها بعد ذلك الحين القصير دليلا على أمر خطير أزعجه لم يكن فى حسبانه . ونظرت إلى وجهه فأدركت أنه قد عاد إليها غاضباً ثائراً ، فقد كانت عيناه محمرتين تقدحان شرراً ، وخيل إليها أن الشعرات القائمة فى وسط شاربه تهتز فى قلق . وأرادت أن تزيل ما عنده من الشجن الثائر ، حتى لا تندر منه بادرة قاسية ؛ فإن وائلا إذا ثار لم يملك بوادره الدموية . كان لا يعبأ أن يبقر بطن فرس عزيز ، أو يطيح بسيفه رأس بعض عبيده المساكين الأبرياء ؛ حتى إذا ما سكن غضبه ، وعاد إلى نفسه ، استولى عليه الحزن ، وكاد يبخع نفسه أسفاً . ولم يكن أكبر ما يحملها على أن تذهب ما فى نفسه أنها كانت تحرص على فرس أو تشفق على عبد مسكين ، بل كان الذى يعنيها هو هذا الهمّ الذى رأت عليه بوادره منذ حين ؛ فقد أحست تغيراً عظيما اعتراه فى تلك الأيام الأخيرة ، وكان قلبها يُعصر عصراً قاسياً كلما رأته يقضى اليوم والليل كاسفاً متململا لا يكاد يذوق نوماً ولا راحة . وتقدمت نحوه ووضعت يديها على كتفيه فى وداعة وقالت فى صوتها الرخيم :

— مرحباً بك ! لقد كنت أعد لك طعامك .

فنظر وائل إلى وجهها نظرة سريعة ، ثم بدت على وجهه ابتسامة صئيلة لم تقاومها الثورة العنيفة التى كانت تموج فى صدره ، ثم حول نظراته عنها وأمسك بيديها برفق فأزاحهما عن كتفيه ، ونزع قوسه عن كتفه فقذف بها فى حنق إلى ركن من الخيمة ، ثم قذف بكنانة سهامه على الأرض فى عنف حتى قعقعت ، وذهب إلى نطع من الجلد فى صدر الخيمة فجلس عليه ، واحتبى بسيفه ونظر إلى الخارج وهو ساهم صامت . فقربت جليلة منه وجلست إلى جانبه ، وجعلت تعبث بيدها حيناً فى شملته ، ثم قالت بصوت خافت :

— أراك مهموماً .

فانفجر وائل ، ولم يطق حبس غيظه وقال :

— لقد طال صبرى ، ولم يبق بعدُ فى القوس منزع . قاومت نفسى ، وكبحت جماحها من أجلك ، من أجلك أنت ياجليلة . ولكن ها هو ذا يتمادى ولا يزيد إلا جرأة علىّ .

فأطرقت جليلة صامتة ، ووقع فى قلبها من يكون ذلك الجرىء الذى يقصده زوجها . فلم يكن فى قبائل بكر كلها من يجرؤ على سيد ربيعة إلا أخوها جساس بن مرة الذى لا يعرف لنفسه سيداً . فأطرقت حزينة وقلبها يغوص إلى أعماق صدرها وتواردت عليها الخواطر سراعاً . لقد طالما سمعت بما يقوله أخوها فى نادى قومه

من التعرض لروجها الحبيب ، ولطالما غاضبنه وألحت عليه بلومها . ولطالما توسلت إليه وهى با كية لـكى ينجنب ما يوجب القطيعة بين وزجها وقومها ؛ فإن تلك القطيعة لم تـكن لتجرّ فى هولهـا حساساً أخاها وحده ، بل هى داهية محطمة تحبط وتنزع وتمزق الشمل كله . فلو كان حساس يجنى بها على نفسه لما كان ذلك يطعن قلبها مثل تلك الطعنة ؛ فإنه فى عيد مسكبر لم يدع فى قلبها رقة عليه ؛ ولـكنها كانت جناية عليها وعلى قومها جميعاً ، قوم أبيهـا وأخويها من بكر ، وقوم روجها وابن عمها جميعاً من تغلب .

وأفاقت جليلة على صوت روجها يهدر قائلا :

— إن أخاكِ حساساً يتحدث عنى حديث الـكاره المستهرئ ، ويجرّئ علىّ هؤلاء الأحداث الذين كانوا أطفالا فى أفنية آبائهم يمرحون ويلعبون ، عند ما كانت المعارك الدامية تثور من حولنا ، إذ نجاهد أقيال اليمن وملوكها فى جبال العالية من تهامة . كنا نبنى لهم المجد لـكى يصعّروا خدودهم للعرب جميعا ، فإذا بهم اليوم قد أذهلهم البطر والجهل ، فحسِبوا أنهم أصحاب ذلك المجد الذى ينفخ أوداجهم كبراً . أما وأنصاب وائل لئن لم ينته ذلك الأخرق لألحقنّـه بالعبيد ، ولأجعلنه عبرة لأصحابه الآخرين .

ورفعت جليلة يدها إلى غديرتيه ، وجعلت تفتلهما بأصابعها ، ثم قالت بصوت هادئ :

— هوّن على نفسك يا ابن العم أمر جساس ! ما هو إلا منك وما أنت إلا منه ؛ وما أنت وما يسعى به إليك الواشون ؟ فرب واش لا يريد إلا فسادا .

فقال وائل ولا يزال حانقا :

— لا تعتذرى عنه يا جليلة ، فلقد كنت تعدليه فيما يقول . ألم تأتنى أنباء ما قلت له ؟

فنظر إليه جليلة فى شىء من الفزع . إن الأنباء تبلغه ، وهى تعلم صدق ما يقول . ولكنها لم تيأس ، وأرادت أن تستعين بما تعلم أنه فى قلبه من حبها . فقالت كأنها معاتبة :

— ألا يرضيك منه عمك وأبناء عمك ؟ إنك تعرف ما يحملون لك جميعا من المودة . فهلا أكرمتهم بالتغاضى عن جهل ابن عمك الصغير ؟

فانتفض وائل حتى نزع عدائره من بين أناملها وقال فى عنف :

— أتغاضى عن جهله ! ومن لى بتحمل ما يتبع ذلك من جهل من يشاركونه ؟ هل كنت لأسيغ أن يجعلنى هؤلاء ملهاة لهم إذا مالت الخمر برؤوسهم ويتخذون اسمى فى أسمارهم العابثة هدفا لسخريتهم وعبثهم ؟ لا وحق مناة ! ما ذلك من شأن وائل . .

ثم قام خارجاً ، ولم تجد كلمات جليلة إلى قلبه سبيلا . فقامت امرأته وراءه وهى دامعة العين وسألته بصوت متهدج :

— إلى أين يا ابن العم ؟ إنك لم تطعم شيئا منذ الصباح .

فلم يجبها ، بل سار وهو يرفع رداءه فى اضطراب ويلقى الشملة على كتفه فى عصب ، ووقفت جليلة حينا تنظر فى أعقابه والحزن يعصر قلبها عصرا ، حتى بعد واختفى عن عينيها ، ثم أسرعت فألقت عليها إزارها وخرجت مسرعة نحو منازل أبيها .

ولما صار وائل فى الفناء الواسع بين خيامه دعا عبده نجاء الغضين نحوه مسرعا . فصاح به فى غضب :

— الرباب !

فأسرع العبد إلى جانب من الوادى ، وسار وائل فى خطوات واسعة لا يلوى على شىء وكلبه يتبعه ويشم آثاره ؛ فلما بلغ آخر ثنية الوادى وقف ينتظر العبد حتى أقبل يجرى وفى يمينه لجام فرس ، فرفع يده إلى رأسها فمسح عليه ووثب على ظهرها وهمز جانبيها فوثبت به لا تكاد تلمس سطح الرمال . وكانت كمينا غراء محجلة لا يرى الرائى منها إذا انطلقت إلا ساقين مثل ساقى النعامة تمدهما من أمام وإيطلين كأنهما لظبى تسبح بهما من خلف ، وكأنها بينهما طائر يخترق الهواء .

وكان وائل بن ربيعة يهمز فرسه فى عنف على غير عادته فإنها ما كانت تحتاج فى ركوبها إلى من يحثها . ولكن الشجون التى كانت تجيش فى صدر الرجل كانت تلتمس منفذاً فى عنف الحركة

فلم يُطق فى ركوبه هدوءاً ، ولما خرج من الوادى عرّج متياسراً إلى براح من أرض صلبة قد غطى المدر سطحها ، فكانت الفرس فى عدوها تثير حولها نثارا من الحصى المتطاير ، وكأنها أحست ما فى قلب راكبها من الثورة ، فأجابها بوثبات لا تبالى بها أين تقع حوافرها . وما كانت إلا هنيهات حتى بلغ وائل هضبة عالية فهدأ من سرعته وترك فرسه تعلو جانبها على رسلها ، ولكنها وثبت على الجانب الصخرى الوعر كما يثب الوعِلُ الأعصم ، حتى علت ظهرها الفسيح . وكان العشب الأخضر يغطى سطحها المتموج ، ولا تزال قطرات الماء من أثر الأمطار تلمع تحت ضوء الشمس فى ثنايا الأعواد ، وفى ثغور أزهار الأقاحى والعرار ؛ فملأ وائل صدره من الهواء وأرخى الحبل للفرس ومسح عرفها بكفه فاطمأنت فى سيرها ومضت بين التلاع والوهاد ؛ تعلو وتهبط فى هواده كأنها تتحرك بما تحسه من إرادة سيدها . وقلّب وائل نظره فى أرجاء الأفق الواضح ، وكانت السماء الزرقاء صافية بعد أن تخلت أمطارها كأنها قد غُسلت من أدرانها . ودبّ السلام رويدا إلى قلبه ، وانفرجت عقده جبينه ولاحت على وجهه بسمة الارتياح . ولما عادت إليه صوره ما حدث فى الصباح لم تعد إليه غضبته ؛ كأن المنظر الوديع قد هدهدها وقطع حدتها . وعادت إليه صوره حساس بن مره أخى

زوجه الحسنة فساءل نفسه : أما آن لحساس أن يدع تلك الوساوس التى توغر صدره ؟ ولكنه لم يحس فى نفسه تلك الكراهة التى ملأته غبطاً فى الصباح لذلك الشاب الفارس الجرىء ، بل لقد كان فى قرارة قلبه شعور بالإعجاب به وينمى مودته . إن مثل جساس من يحمى الظهر عند اللقاء ، ويشفى النفس من دماء الأعداء ، وإن مثله من يركن إليهم الملوك فى رد عدوهم ، والذب عن حياضهم . وهو أخو جليلة العزيزة ، وما كان أولى به أن يكون إليه حبيباً ومنه قريباً ! فإذا كان قلب جساس قد امتلأ غيرة منه وحقداً عليه ، حتى أطلق فيه لسانه ؛ فإن عطفه قد يسلّ وغيرته قد تهدأ . إنه لا يحاول إذا لقيه أن يخفى عليه ثورته . ولكن ذلك أخف كيداً وأسلم عاقبة من أولئك الذين يلقونه بالبسمات ، فإذا تولوا عنه سلقوه بألسنة حداد . لقد تمنى عند ذلك لو عاد جساس إليه صديقا يؤنسه بمودته ويسند ملكه بشجاعته.

وما زالت هذه الخواطرُ حتى أراحت عن كاهله ثِقله فتنفس نفساً عميقاً ، وشعر بالأشجان التى تصطرم فيه تتصاعد معها ، ودب إليه دبيب من السلام . وسار على رِسله يقلب طرفه فى الأفق الصافى وفى جوانب الربى الخضراء .

وفيما هو فى ذلك لمعت أمام عينه لمعة على مرمى سهمين ، فرأى بياضاً يبرق ثم يسلب فإذا هو بطون الظباء وهى تثب فى خفة من

تملة فوق طريفه لنقصد إلى أحرى آمنة إلى حاب من الهصبة ، صرح صرحة وهمز فرسه وحرك اللجام إلى قصدها فانطلق لفرس تعدو نحوها ووب عساف يهدر من حلقه حى سبقها . ما كادت الظباء تحس المطارده حى حرحت تهم على الهصبة فسيحة تعلو وتهبط بين ناشز من سطحها ومطامن ، والخوف ندف بها وقدها . وقد مدت رؤوسها حى تلعب قرونها الطويلة حاب لهرها . وعدا الكلب والجواد فى آثارها ، وطالت المطارده فى امن وتياسر حى بدا شىء من التردد على الظباء ، فصرف ياول أن تجد لها عاصما ، ولكن الهضبة الفسيحة لم تكن بها صحر وقّلُ فى حاسه ، فانطلقت تعدو فى فزع حى أدرك الكلب عساف رحا منها كان أثقل الرب وثبا ؛ فجعل يهر فى وجههما وسوانب ن حولها وهما يحاوران وتحاولان الخلاص منه حى أدركه رس وأصبحت على مرمى السهم من الطبيين . فحدب وائل قوسه سدد الرمية إلى أقربهما إليه ، وهو يحاذر أن يصيب كلبه الباسل مبنه ، وإذا بالكبش يخر وقد أصاب السهم مَفْصِلَ كتفه ، ثم سدد رمية أحرى فإذا بالنعجة تخر على حطوات منه وقد وقع صل ما بين عينيها . وهمز وائل فرسه همزة فوثب به حى اب عند الرميّتين وهما تفحصان الأرض بأظلافهما الدقاق . ل الفارس عن جواده فى حفة وجرد سيفه فدوف على الطبيين

ومال عليهما نفحص أعضاءهما فى إعجاب .

ثم رفعهما إلى ظهر جواده فربطهما فى سرجه عن يمين وشمال ، ثم مسح على رأس كلبه وصاح به :

— عشاء طيب يا عساف !

فبصبص الكلب بذنبه ونظر إليه كأنه يضاحكه ، ثم وثب الفارس فوق ظهر جواده فاستوى عليه ومسح بيده على رأسه وعُرْفه وأرخى لجامه وأخذ يتغنى ببعض شعره .

وقضى وائل فى عودته ساعات يسير على هِينة وهو يقلب نظره فى الفضاء ، وقد هزته نشوة أسنته كل شجونه الثائرة ، حتى مالت الشمس منحدرة إلى الأفق الغربى ولعبت تحتها الأزهار تتألق بين بياض فى صفرة ، وحمرة فى زرقة ، حتى بلغ جانب الهضبة مما يلى روضته . فبدا له أن يُعَرِّج عليها ليذهب إلى الخميلة التى آوى إليها فى الصباح لينظر إلى أفراخ القبرة التى أجارها فى حماه قبل أن يعود إلى داره . ورأى فى طريقه إلى الروضة إبلاً حساناً صادرة عن الماء ، ورأى جساساً فى عُدْوةِ الوادى على فرسه يسير فى أعقابها . وكان فى يده رمح قد ركزه فى ركابه ، فنظر نحوه نظرة قصيرة فرآه ينظر نحوه ، وخيل إليه وهو على تلك المسافة البعيدة أن نظرته لم تخل من تحدّيه . فصرف وجهه عنه ولم يرد أن يفكر فى أمره حتى لا يعكر الصفاء الذى شمله من جولة اليوم .

ودخل الروضة حتى بلغ موضع الخميلة فنزل عن جواده وسار في خفة حتى رفع أطراف الغصون المتدلية .

وكان يغنى بصوت خافت وهو ينحني ليلتمس موضع الأفراخ :

فسره بدعو بإلف قنبر هاتفة بين رياض الحجر
لا ترهبي خوفاً ولا تنقري فأنت جارى من صروف الحذر
إلى بلوغ يومك المقدر

وما كاد يدير بصره بين الفروع حتى هاله ما رأى : كان العش هناك محطوماً في أذيال الغصون المتدلية ، وكانت الأفراخ فيه مدكوكة حتى سويت بالأرض واختلطت دماؤها القليلة بأعواد القش والأوراق المتساقطة من الشجر .

إذن لقد دخل الروضة دخيل تعمد أن يستبيح حماه ويطأ القبرة المسكينة التي آوت إليه .

فاعتدل وتطلع فيما حوله وعاد إليه الغضب أشدّ مما كان . ولم يشكّ في أن ذلك الجرىء الذى اعتدى عليه لم يكن سوى جساس ، فهو وحده الذى يستطيع أن يجرؤ على إيذاءه مثل هذه ليظهر بها ما في نفسه من استخفاف . فهو الذى آذى كليبه في الصباح ، وما كان أحراه أن يكون هو الذى حطم عش هذه القبرة المسكينة وحطم أفراخها الزغب تحت عينيها .

ولما رفع بصره إلى أعلى الخميلة رأى في الغصون القصية مواضع

قصم وبرع ، وألقى بطره على الأرض فإذا آثار إبل ورأى إلى جانب موضع العس رشم خف على الرمال ، فراد يقينه أن جساساً إنما هو الذى استباح حماه فذهب ليركب وهو ممتلئ من الغيظ ، وقد عزم على أن يفصل فيما بينه وبين الفتى الجرىء ؛ إذ صار الأمر بينهما إلى ما لا يستطاع معه احتمال ولما هم بالسير لاحت له من خلال أشجار الروضة ناقة تقطف الأوراق الخضراء من أعالى الغصون ، وتسير متباطئة بين الشجر تبرع من غصونها لقمات ، فتأملها فإذا هى ناقة بيضاء ضئيلة البدن هزيلة حدباء الظهر ليس لها سنام . ولم تكن هذه من إبل جساس . فقد كانت إبله حمراء عالية نهر أسنامها من خصوبة المرعى وعذوبة المورد . فوقف يتأملها حتى تراءت من الروضة وذهبت لتختلط بإبل جساس .

فأسرع وائل فى أثرها حتى أدركها ؛ ثم وضع يده على مقبض سيفه ليعقرها . فما كان لأحد أن يرسل ناقته حتى تطأ أرض الروضة ، وما كان وائل ليترك صاحبها من بعد بغير عقاب .

ولكنه سمع صوتاً من ورائه ينادى فى قطاطة :

— « تمهل يا كليب لا تفعل ! » .

فرفع وائل يده عن سيفه ونظر فرأى من ورائه جساسا ينظر إليه فى غضب ويبرق فى وجهه بما اعتاد من نظرات التحدى .

فقال له معبسا : أهذه الناقة لك ؟

فقال حساس : « أجل ! هى ناقتى » .

قال كليب : « ليست ناقتك . فإنى لم أرها من قبل » .

قال جساس : «هى ناقة ضيف نزل عندى وهى فى جوارى» .

فقال كليب وقد عاد إلى القنص على سيفه : «لقد وطئت حماى» .

فقال حساس متحدياً : « وناقة ضيفى فى حماى » .

فصاح به كليب : « أتحمى على يا حساس ؟ » .

فقال حساس : « إنها ناقة ضيفى » .

فكظم كليب غيظه . وقال متساهلا : « لقد هممت أن أقتلها . ولكن احذر أن تعود تلك الناقة إلى الرّعى فى مرعاى » .

فقال حساس وقد ضحك ساخراً : « مرعاك ! كأننا لا يحق لنا أن نرعى إبلنا فى هذه الأرض ! إنما هى أرض بكر كما هى أرض تغلب ولم يورّثها لك أبوك ربيعة » .

فتألم كليب لذلك القول الذى لم يتعود سماع مثله وعلا الدم فى وجهه ، ولكنه تمهل فى الجواب ثم قال : « أتنصحك أن تبعد هذه الناقة عن إبلك » .

فأجاب حساس متحديا : « لن أبعدها ، وسترعى مع إبلى وحول مناه » .

فتقدم كليب نحو الشاب وقال مهدداً : «أيها الفتى ! وحق آلهة وائل لئن عادت هذه الناقة إلى الرعى هنا لأضعن سهمى فى ضرعها» .

وضحك جساس مرة أخرى ساخراً وقال : « لئن وقع سهمك في ضرعها ليكونن لي شأن » . وصمت قليلا ثم قال من بين أسنانه : « لئن وقع سهمك في ضرعها لأطعنن رمحي في لَبَّتِك » .

ثم همز فرسه ومضى وهو يطعن الأرض برمحه وعيناه تقدحان شررا .

فانتفض كليب كأنما لدغته نار وقال وهو ينظر في أثره : « أيها الفتى الوقح ! ويل لك ! » .

فوقف جساس والتفت نحوه رافعاً رأسه وقال : « سترى لمن الويل يا كليب » .

فقال كليب وهو يكاد ينفجر من الغيظ : « وحق سماء لأكحلن من سفهك أهذا تخاطب سيد ربيعة ؟ » .

فوقف جساس أمامه وجهاً لوجه وقال ساخراً : « ما قلت سفهاً ولكن الحق يصرعك . نحن الذين سودناك . لم تسدنا بعبيدك بل سدت لأننا عززناك . حاربنا معك حتى انتصرت بنا . أتريد أن تجعلنا عبيداً لك ؟ » .

فخشي كليب أن يخرج الفتى في قوله إلى أكثر من ذلك فاكتفى بأن قال : « سأعرف كيف أؤدبك » .

ثم مضى عنه مسرعاً حتى بلغ مضارب خيامه .

وكانت جليلة واقفة عند باب البيت ، فلما وقعت عينها عليه عرفت فى وجهه الغضب ، فارتاعت وأضطرب فؤادها ، وسارت مسرعة نحوه ووجهها ينم عما يثور فى نفسها من المخاوف .

ولم يأخذها بين ذراعيه كعادته إذا أقبل . ولم تهم هى بالاندفاع إليه كعادتها عند ما تراه راجعاً ، بل وقفت على خطوة منه ، وجعلت تفرك يديها لتزيل عنهما أثراً من الدهن فيهما ، ثم قالت وهى تحاول إخفاء ما بها :

« أرى صيدا كريما يا ابن عمّ » .

فقال وهو يعلق سيفه فى عمود الخيمة فى وجوم : « شرٌّ مستطيرٌ وحق مناه ! » .

فقالت وهى تمانع نفسها من إظهار الجزع : « هل غضبت لأمر ؟ » .

فقال متجهما وقد نظر إليها : « أترين يا جليلة أحداً من العرب يمنع منى جارَه ؟ » .

فقالت : « ومن يجرؤ على ذلك إلا أن يكون عمك مُرّة . هل حدث بينكما أمر ؟ » .

فقال كليب : « لم أر أباك اليوم » .

فقالت جليلة فى شىء من الارتياع : « إذن هو جساس مرة أخرى » .

فقال كليب بحقد : « وشتمنى » .

فقالت جليلة وقد أقبلت عليه وطوقته بذراعيها : « دع جساسا يا ابن عمي . إنه فتى أخرق ! » .

فقال كليب ، وهو يتخلص من ذراعيها : « أخرق ؟ أعليّ أنا يكون خرقه ! » .

فعادت جليلة إلى التعلق به وقالت : « أتوسل إليك يا ابن عمي . أيها الحبيب . أتوسل إليك ألا تقطع رحمك » .

فقال كليب : « هو الذي يقطع الرحم ، أترضين أن يهان كليب يا جليلة ؟ » .

فقالت جليلة وقد أخذت وجهه بين يديها : « أعف عنه من أجلي ، أعف عنه يا كليب ! هو أخي وأكرمني بالتجاوز عن خطيئته . عِدْني بخير منك . أتفعل ؟ » .

فسكت كليب ولم يجب ، بل حاول أن يتخلص من يديها . ولكنها تعلقت به ، واستمرت تتوسل وترجو .

ونظر إليها كليب فرأى دمعة تنحدر على خديها وهي متجهة إليه بعينيها المغرورقتين . فتردد لحظة ثم ضمها بين ذراعيه بقوة وقال لها : « لقد طالما عفوت عنه يا جليلة من أجلك » .

ثم قبلها بين عينيها ، ومضى يحدثها فأفضى إليها بما كان من جساس .

٢

كانت الشمس قد مالت للغروب ، وصبغت الأفق الغربي بلون القرمز ، ولم يبق من شعاعها إلا فلولٌ دهشة تتعثر في أذيال سحابة بيضاء تسير قرب الأفق متباطئة ، وكان نسيم المساء المقبل يهب بارداً من صوب الشمال ، يحمل معه طلائع برد ليل الشتاء في صحراء اليمامة من بلاد نجد .

وجلس مُرَّة ، شيخ بكر ، وحوله شيوخ العشائر يتحدثون عن أحداث اليوم ، وعن عزمات الغد ، والعبيد يجمعون الأحطاب من بطون الوديان ويكدسونها أكداسا في وسط حلقة الجلوس ليوقدوا منها النيران .

وأقبل جَسَّاس بن مُرَّة يسير متباطئا ، حتى اقترب من أبيه الشيخ ، ثم وقف وراءه وهو صامت ، وقد استند على رمحه المركوز في الرمل الناعم اللامع .

فنظر إليه الجلوس في صمت ؛ إلا أباه مُرة ، فقد أطرق ولم يلتفت إليه ، وعلت وجهه سحابةٌ خفيفة من كآبة ، كأنه لم يسترح إلى مقدم ابنه الشاب في ذلك الوقت .

وكان جساس مقطّب الجبين ، تلمع عيناه لمعة الغضب ، وكان

شعره الطويل الأسود مضفوراً فى غدائر ملوية ، يهتز مع النسيم فوق كتفيه .

وكان طويل القامة ، دقيق العود ، ليس فى لحمه فضلة من شحم تُدَوِّر ملامحه ، فبدا فى وقفته تلك كأنه رمح يتكئ على رمح ، وبدت تقاطيع وجهه حادة قوية ، تجمعت حول فم منقبض تكاد شفتاه لا تنفرجان .

وقطع جساس السكون بعد قليل ، فقال بصوت أجش : « أما لهذا الهوان من آخر ؟ » .

فنظر الجلوس إلى أبيه الشيخ ولم يتكلموا ، وانتظروا ما يقوله الشيخ لابنه الغاضب .

وكان الأب مُحتبيا فى جلسته ، جمع ركبتيه فى حبل دقيق مربوط من تحت إبطيه ، فلم يحلّ حبوته ، ولم يلتفت وراءه ، بل قال بصوت هادئ لا يكاد يسمع ، وقد زاد وجهه عبوسا : « دعنا اليوم من هرائك » .

فانفجر الفتى عند ذلك ، وقد أنساه الغضب ما يجب لأبيه من توقير فقال : « إنى لن أصبر على ما تصبرون عليه ، فهأنذا قد أنذرت » .

فحل أبوه حبوته ، وانتفض كأنه قد أحس وخزة ألمة ثم قام ودار بوجهه إلى ولده وصاح به : « ماذا تقول ؟ »

فوقف الشاب مرفوع الرأس فى شىء من التحدى ، وقال وصوته لا يزال أحسّ حافًّا : « أقول إنى لن أصبر على الضيم . هذا رجل يسومكم الخسف ولاتتحركون به . قد وضعتم أعناقكم إليه ليطأها بقدمه . ولكنى لن أكون معكم فى ذلك العار » .

فقال أبوه ، وقد اربدَّ وجهه : « من تعنى بقولك أيها الفتى الجاهل ؟ أتعنى سيد ربيعة ؟ أتعنى الرجل الذى حفظ قومك من العار ، وحماهم من الذل ؟ أتعنى وائل بن ربيعة ؟ » .

فقال الشاب ولا يزال فى صوته رنين الحقد والغضب :

« نعم أعنى وائل بن ربيعة . أعنى كليب بن ربيعة ، ذلك الذى يجعلكم عبيداً ، ولا يعدّكم إلا أتباعا وخدما » .

وسرت فى الجلوس ضجة مكتومة ، ولا سيما من شيوخ بنى تغلب ، وتحرك بعضهم يريد القيام ، غضباً مما ألحق الفتى من الإهانة بكليب .

فأشار إليهم الشيخ بيده أن يصبروا ، فهدأت الضجة ، وسكن اللغط ، ونظر القوم إلى الشيخ ، وقد اعتدل أمام ولده الغاضب ، كأنه يريد أن يبطش به .

ولكنه تحول بعد لحظة قصيرة وكأنما جال فى نفسه خاطر طارئ صرفه عما كاد يهم به من عقاب ابنه ، ثم نظر إلى القوم وقال لهم وهو يحاول أن يجمع شعوره ، ويكبح العاصفة الثائرة فى صدره :

« يا إخواني وأبناء عمي ! اجعلوا ما قاله هذا الفتى يذهب مع الريح ، فما هو إلا من جهل شاب ، ليس يدري ما خفي هذا الأمر عليه » .

ثم نظر إلى ولده ، وقال وهو متجهم :

« أيها الابن المنكود . لقد صبرت على كثير من آدابك . ولكني أراك تمادت ، وأحب أن أعلمك بشيء ليس تعلمه ، لعلك ترجع عما يوغر صدرك ، ويوشك أن يقطع بينك وبين أبيك » .

فأطرق الفتى وخشع قليلا ، عند ما سمع قول أبيه ، واعتدل في وقفته ، وقد أحس شيئاً من الخجل ، لما أظهر من التحدي لشيخه . ولحظ أبوه ذلك فألان من خشونته ، كأنه قد أمّل أن يستلين قلب ابنه بالحجة والموعظة ، لأنه كان يعلم أن الرهبة لن تمنع ذلك الابن من الإقدام على عظائم الأمور .

قال مُرة موجها كلامه إلى شيوخ قومه وهو يريد أن يسمع ابنه تاريخا لم يشهده : « لقد علمتم ما كان من سطوة قبائل اليمن بنا ، وإذلالهم إيانا ، أيام كنا لا نملك لأنفسنا أمراً ، ولا نقوى على رد اعتداء » .

فقال شيخ أبيض اللحية كان أقل الجلوس اكتراثا بما يجرى حوله : « قسماً بمناة ، لقد كانت قبائل اليمن تجتاح تهامة ، لا تلقى من يردُّها » .

فال مره منجهاً إلى ابنه : « صدق أبو عامر . لقـد كاس مَدحِـج نسومنا الحسف ، ولا تحنمع لنا كلمة فى مقاومة عسفها ، حى أنى دلك الشهم الذى سحدث عنه هـدا الحدث القبيح ، فاحسمعب عليه كلمة قومك ، من سى شىبان ، ومن سى أبيهم بكر ، ومن سى عمهم تعلِب ، فوقف بهم يوم حرارى ، حى قادهم إلى النصر والعر والمحد » .

فسرب فى الجمع عند دلك همهمة الارتياح ، وعاد أبو عامر إلى الـكلام فقال :

« إبى لأدكر النار التى أوقدب فوق حرارى لنهدى بهـا ونحنمع عندها . كان دلك كأنه بالأمس القريب ، ولقد سفى وائل ان ربيعة نفوسنا وحوى مىاه من العدو المندحر » .

فعاد مره إلى الحديث فقال :

« وإنا لو أعطينا وائلا أموالنا وأنفسنا ، لـكان دلك بعض حقه علينا ، لحفظه أعراضنا ، وإعلائه أمرنا » .

فرد الجمـع موافقين : « إن يد وائل بن ربيعة علينا لا تُـكافأ عـال » .

فتحرك حساس فى غيظ وانفجر بعـد أن عجز عن كتمان ما فى نفسه وقال وهو يهدر :

« وحق مناه ما أراكم إلا تنطقون بما لا تطوون عليه الجوانح .

إنكم لتعلمون أنه يمنعكم الماء حتى يُصدر عنه عبيده ، ويمنعكم الرعى حتى تمتلىء بطون إبله ، ويحمى عليكم الوحش فى الفلاة فلاتستطيعون أن تصيدوا بها طبياً أو تحترشوا ضباً . وأن صدوركم لتتمرق من الغيظ ولـكنكم تخفونه من خوف بطشه » .

فتقدم مره نحوه مهدداً ووضع يده على مقبض سيفه وصاح به :
« لا كف أيها العَـقُـوق ! » .

فأسرع إليه أبو عامر وأمسك بيده يمنعه ووقف جساس حيناً ينظر إلى شيخه وهو يرتعش فى اضطرابه ثم حول عنه وجهه وأسرع عنه ذاهباً فى صمت وعيناه تقدحان شرراً .

وكان الليل فى أثناء هذا قد أقبل وأرخى على الآفاق سدوله ، ولعب أنوار النيران على وجوه القوم وهم جلوس حولها مطرقين يشفقون أن يرفعوا عيونهم نحو الشيخ فى ثورته . ولم يجد مُرّة فى نفسه ارتياحاً الى البقاء فى نادى قومه بعد أن كان من ولده ما كان ، ولم يدْر كيف يستطيع أن يداوى وقع تلك الألفاظ القاسية التى فاه بها الفتى فى ثورته ، ورأى الأمور تتعقد وتتجهم .

ولم يدر ماذا ينبغى له أن يفعل ولا أين يجب عليه أن يقف . فقد فتح جساسٌ عليه باباً من الفتنة ما كان أحب إليه أن يبقى مغلقاً . ولم يدر كذلك ماذا يحمل الغد المقبل فى طياته بعد أن أقحم ذلك الشاب المنكود فى غضبته ذكر بكر وتغلب . فإن بكراً

ونغلب من صُلب أب وقد أقاما معا على حالى العُسر واليسر ؛ فماذا يخفى لهما الغد فى طياته ؟ هذا جساس بن مره ينادى بكراً أن تثور ، وما كانت تغلب لترضى أن يطمع أحد فى ملكها ، وإن كان من جيرانهم وبنى أبيهم . فلم يجد الشيخ فى حيرته هذه إلا أن يذهب عن الجمع لعله يهتدى فى خلوته الى ما يضىء له تلك الظلمات .

وكان الهواء قد برد ولف الشيوخ عليهم العباء . فلما تركهم مره قاموا فى أثره الى البيوت يستدفئون وراء جدرانها الصوفية السميكة ، ويتم كل منهم الحديث مع عشيرته فى خلوه من الرقباء .

وأقبل مُره نحو بيته ، وكان يسير مطرقا ، يفكر فيما عساه يفعل مع ولده الغاضب . حقا لقد ذكره بمآثر الأمير فى قومه ، وبيّن له أسباب سيادته بينهم ، ولكنه كان لا يزال يتوجّس خيفة من طيشه وحمقه ، فقد عرف جساساً سريعاً إلى الفتك ، مقداماً على الشر ، لا يتردد فى أن يلجأ إلى سيفه إذا ظن أن أحداً اعتدى على كرامته ، أو مس كبرياءه ؛ وعرفه لا يبالى من يكون ذلك الذى يقدم على عداوته ولا يعبأ بما يجر إليه غضبه .

عرف الشيخ أن ولده لن ينصرف عن كليب إذا تعقدت الأمور بينهما ، ولن يثنيَه عن الانتقام لكبريائه شىء ، ولو سالت دماء قومه فى حرب تشب بين بنى العم من جراء فعلته .

جعل مُرّة يقلب وجوه الرأى فيما يصنع مع ابنه ، حتى يصرفه

عن التعرض لكليب . حتى لقد فكر فى أن يبعده عن منازل قومه ، حتى لا يجمع بينه وبين الرجل الذى داخله الحقد عليه .

ولم ينبه من تفكيره ذلك إلا عندما سمع صوت ابنته جليلة تتكلم مع أمها فى الخيمة من وراء الستار ، وتبين من صوتها أنها كانت تتحدث وهى مرتاعة ثائرة النفس . فدخل إلى بيته ، وكان بيتا رفيع الأركان ، قد أقيم على أعواد عالية ، وشدت إلى الأرض أوتاد كبيرة ، تمتد إليها حبال ضخمة من أوبار الإبل وأصواف الغنم . فلما سمعت جليلة وقع أقدام أبيها سكتت ثم وقفت تنتظر دخوله ، وقد ارتسم على وجهها ما كان فى قلبها من الخوف . ثم اقتربت إليه فقبلت يده فى خشوع .

فقال مرة : « مرحبا بك ياجليلة . خيرا ماجاء به هذه الليلة ؟ »

« ثم التفت فرأى جساسا إلى جانب فى ركن من الخيمة وأمه تنظر إليه كأنها كانت تحدثه فى غضب .

فقالت جليلة وهى تحاول أن تهدئ من روعها : « ليس بى إلا ما تحب يا أبى » .

فقال مرة : « لقد سمعتك تتكلمين مع أمك » .

وما كاد يتم قوله حتى انفجرت المرأة تبكى ، ووضعت يديها على عينيها تحاول كتمان صوت البكاء .

فوضع مرة يده على رأسها ملاطفا ثم قال : « ماذا يحزنك يابنيتى ؟ »

فاستمرت فى بكائها مليا ، ثم قالت بين شهقاتها : « أدرك جساساً يا والدى » .

فقال لها وقد نظر نحو ابنه : « لا تخافى يا ابنتى . ليس عند جساس إلا كلّ خير ! » .

قال ذلك ليهدئ من روع ابنته . ولكنه كان يكذب قوله بنبرات صوته المترددة وبنظراته الغاصبة إلى ولده .

فقالت جليلة : « أما سمعت يا أبى بما كان بينه وبين وائل ؟ »

فسكت الشيخ ولم يرد أن يزيد من ارتياعها ، فقال : « لم يكن بينهما شىء يخشى » .

قالت جليلة : « إذاً لم تعلم يا أبت . إذاً لم يخبرك جساس » .

فقال جساس بعد أن بقى صامتاً كل تلك المدة : « لم أخبره يا جليلة . وماذا أقول له وقد وجدته مع شيوخ بنى شيبان ؟ أأقول له إن كليباً أذلنى ؟ أأقول له إن كليباً كلمنى كما يكلم السيدُ العبدَ ؟ » .

فقال مرة وهو يحاول كتمان غضبه : « لا تخافى يا ابنتى . لن يكون بينهما إلا ما تحبين » .

ثم التفت إلى جساس وقال : « إذاً لقد كان بينكما نزاع » .

قال جساس وشفتاه تختلجان : « قال لى قولا فرددته عليه . هدّدنى فهددته » .

قال مُره مرتاعاً : « هددته ؟ » .

فقال جساس وقد أعلى صوته على صوت أبيه : « نعم هددته . ألست جساساً بن مرة ؟ ألست من شيبان سادة بنى بكر ؟ فماذا يفضلنى كليب ؟ » .

قال مُرة وقد أودع كل ألمه فى كلمته : « جساس ! » .

ونظر إليه غاضباً . فأغضى الفتى أمام نظره أبيه ، وبقى صامتاً فقالت جليلة تخاطب أخاها :

« أى جساس ! أب أخى وهو روحى . وبحق عليك لا تقطع رحمك ، ولا تُؤْذِنى فى صاحبى » .

فعاد مُرة إلى ملاطفتها قائلاً : لا تخافى يا جليلة . إن جساساً لن يعصِىَ أمرى » .

ثم نظر إلى ابنه وقال : « ولمـــاذا هددك يا جساس ؟ » .

قال جساس : « قد علمتَ أنه قد حمى خير مراعى جبالنا . وأمر ألا ترعاها إبل أحد سواه » .

قال مُرة : « علمت ذلك قبلك ، وقد أقررنا ذلك ورضينا عنه ولــكن إبلنا ترعى مع إبله فلا يتعرض لها » .

قال جساس : « ولــكنه يريد أن يفضحنى مع جارى » .

قال مُره : « ومن جارك هذا ؟ » .

قال جساس : « سعد بن شمس الجرمى ، رجل نزل ضيفاً على

حالتى السَنسُوس ، وله ناقة ترعى مع إبلى ، فطردها كليب وقال : لو عادت إلى هنا لوضعت سهمى فى ضرعها » .

فسكت مره ، وبقى ناظراً إلى ولده ينتظر أن يتم الحديث ، فقال حساس : « فقلت له لو وضعت سهمك فى ضرعها ، لكان لى معك شأن » .

فقال مُره وهو يكتم ما ثار فى نفسه من الغضب : « سنأخذ إبل جارك ونرعاها فى مرعى آخر » .

قال حساس معانداً : « ولكنى لا أفرط فى أمر جارى » .

قال مُره يحاول تهدئة ولده : « وأنا كذلك لا أفرط فى جارك يا ولدى ، سنرعاها فى مرعى آخر » .

فقال حساس غاضباً : « لا بل ترعى إبله مع إبلى ، والويل لمن تعرض لها » .

ثم خرج من البيت غاضباً ، فذهب ولم يرجع إلى بيته ، ولم يعرف أحد أين قضى ليلته .

وجعل مره يخفف من خوف ابنته ، ويهدئ من روعها ، وجلس يحادثها ويضاحكها ، وهو ثقيل القلب ، يتوجّس خِيفة مما قد يجره عليه نزق ولده ، حتى إذا ما اطمأنت جليلة إلى وعود أبيها قامت لتعود إلى بيتها ، وخرج أبوها معها ليؤنسها فى ظلمة الليل ، حتى إذا بلغ قبة كليب العالية ، تركها عند المدخل وعاد إلى بيته . وكان الهمّ يملأ قلبه ، من توقع ما يكون بين ابنه وبين زوج ابنته .

٣

مضت أيام كان منازل بكر وتغلب في أثنائها لا تظلل إلا وجوهاً جاهمة عابسة، وكانت البوادي خالية لا تتبادل فيها الشيوخ الهمسات ولا توقد في وسط براحها النيران؛ قد شغل الجميع هاجس من توقع الفرقة بين أبناء العم الذين عاشوا معاً في ربوع تهامة واليمامة سنين متصلة يتقاسمون العيش بنوعيه في سراء وضراء، ويتجاورون المروج في رعيهم وصيدهم: تجمعهم جميعاً ذكريات الجهاد المشترك مع عدوهم من ملوك اليمن وقبائله. فإن الصيحة التي صاحها جساس لم تكن إلا صدى لما في قلوب قبائل بكر جميعاً وفي قلوب شيبانها خاصة.

كان الشيوخ يحسون ويتألمون. ولكنهم كانوا يطوون ما يحسونه من الألم تحت الصمت العميق مخافة سطوة الملك الباسل الجبار وائل بن ربيعة. كانوا يحسون أن كليباً قد أطغاه الملك وأبطره ما يلقاه به قومه من التبجيل والتكريم. ولكنهم كانوا كلما ثارت نفوسهم من طغيانه تذكروا سابق الذلة التي كانوا يئنون تحت أعبائها عندما كانت قبائل اليمن تتحكم في أرضهم فيؤثرون الذلة لابن العم ويصبرون على كبرياء كليب وعسفه وطغيانه فإنها لا تجرّعهم من الغصص مثل ما كانت تجرّعهم وطأة حكم

الغريب . ولكنّ حساسا صاح صيحته وتلقفها من ورائه الشبان في قبائل بكر ممن لم يعانوا عصبة حكم قبائل اليمن ولم يشهدوا عَسْفَ أقيالهم وجورَ ملوكهم . فإنهم لم يروا كيف كان شيوخهم تقتل وتسجن ، ولا كيف كان أموالهم تسلب ، ولا كيف كان حُرُماتهم تستباح . لم يشهدوا شيئا من ذلك ، وكان كل ما شهدوه إنما هو كبرياء كليب واستئثاره دونهم بالسمو والسلطان وحمايته الوحش من صيدهم في فيافي تهامة واليمامة . كانوا كلما همّوا الى طاعة نفوسهم في لذة الصيد وجدوا دونهم الحمى موصداً إلا لمن كان كليب يؤثرهم من أعوانه . أو لمن كان تخصهم بالقرب منه والحظوة عنده من أهله .

سمع هؤلاء الشبان صيحة حساس فاهتزوا لها ورددوها فيما بينهم ، لا يبالون أن يضرموا في قبائل ربيعة ناراً لا تطفئها إلا الدماء السائلة بين بني الأب والأم من بكر وتغلب . وكان الشيوخ كلما سمعوا صيحاتهم أشفقوا وجزعوا مما تحمله الغد من كوارث تفجعهم في الولد والحمم ، وفي النفس والمال . لقد طالما عركوا الحروب وخاضوا غمارها ، وما كانوا ليجنَحوا إليها إذا استطاعوا الى تجنبها سبيلا . لقد عمّهم السلام ودَرَّت لهم الأخلاف وأمرعت لهم المروج ، واستقرت السيوف في أغمادها ؛ إذ هابتهم قبائل العرب جميعاً وتحامت عداوتهم وتركتهم يستمتعون بثمار النصر الباهر

الذى كان رمزه وصاحب عَلَمه كليب — وائل بن ربيعة — .

كان الشيوخ يُشفقون أن يستبدلوا بذلك السلام وهذا الرخاء حرباً تستنزف دماءهم وتخرّب عمرانهم وتضيّع ما حازوه من أموال ؛ ولهذا قصوا تلك الأيام التى أعقبت صيحة حساس واجمين ، كل منهم منطوٍ على نفسه يفكر فيما هو صانع بنفسه وفيما هو محتال فيه مع بنيه وحفدته من أولئك الشبان الأغرار الذين لا يكتمون ما فى نفوسهم ولا ينظرون فى أعقاب الأمور .

ولكن الأمور لم تقف ؛ إذا كان شيوخ ربيعة لا يزالون يترددون . فإن قلب حساس كان يغلى من غيظه وحقده فلم يدع له اطمئناناً فى صباح ولا مساء ؛ بل كان يدفعه ويثور به فلا يزال يضرب فى النجوع ليُلِمّ بكل فتاك من الشبان يحرضهم وينقل إليهم ما لم يبلغهم من أنباء عسف كليب . فصار لا يأوى الى منازل أهله إلا الساعات القلائل فى طويل الأيام ، فإذا آوى إليها لم يرتح الى حديث أحد ولم يرتح أحد إلى حديثه إذ استبدت بخياله صورة واحدة ، صورة كليب . وهو يرفع رأسه عليه شموخاً وينظر إليه باسماً ، لا يخفى عنه ازدراءه ويأمره ألا يعدو بناقة جاره الى الحى ، كأنه السيد يأمر بعض عبيده ويشير إليهم بإصبعه فلا يسعهم إلا أن ينحنوا وأن يطيعوا .

فى تلك الأيام الجاهمة الساكنة كان شابان اثنان لا يعبآن

نشىء مما يفكر فيه الشيوح ، ولا يباليان شيئاً مما يصل إلى أسماعهما من ثوره حساس . كانا صديقين شبا معاً وتقاسما حياة النعيم فى أكبر بيتى ربيعة . نشأ فى سلام لم يعرفا ما آزق الحروب ، وفى بحبوحة من العيس لم تلجئهما صرورة الى كبح النفس عن لذات الحياه . وكانا جميلين ناعمين تركهما الأهل للهو ، فلم تكن بهم حاجة إلى حِدِّهما ، واكتفى الشيوح بأن يتحدثوا فيهما وأن يتهكموا بانصرافهما إلى اللذات ، وعَنفوا عليهما فى الأحاديث . ولكنهما لم يباليا من دلك شيئاً ؛ فما كان يصرهما أن يسمعا رأى الشيوخ فيهما إذ كان ذلك أبعث لهما على المرح والاستهتار بالمحون .

كان أحدهما عدى — المهلهل بن ربيعة — الذى كان أحوه وائل يسميه زير النساء تهكما وسخرية ، وكان الآحر همّام بن مرة أخو جساس .

ترك الصديقان الشابان منازلَ الحى الساكنة الحاهمة واعتزلا فى روضة من الرياض عند رأس وادٍ صخرىٍّ ضيق تنحدر جوانبه فى درجات وعرة تجرى من فوقها جداول من ميـاه المطر المجتمعة عند رأسه ، وكانت المياه فى هبوطها على الحواب الصخرية تهمس فى حرير رقيق تشبه وسوسة أوراق الأغصان إذا هزها النسيم . وكانت السفوح مخضره تكسوها حصل متفرقة من أعشاب بارضة وشجيرات قصيرة أحياها الموسم المطير .

وأعدّ الصديقان ليومهما عُدّته من خمر وفاكهة وطعام ورياحين من زهور العرار العطرة البيضاء ذات الحدقة الصفراء ، وبعثا إلى فتيات من خليعات القبائل ليؤنسهما في المنادمة على الشراب ، كما اعتادا ذلك في مجالسهما ؛ إذ كانا لا يرهبان أن يتحدث عنهما الناس . فما كان ذلك عنهما بالحديث الجديد .

وبقيا في مجلسهما إلى أن تصرم النهار وهب النسيم باردا يؤذن باستطالة الظلال . واضطربت غصون الأشجار ، وتمايل سعف النخلات حول العين . ومالت الخمر بهما فاضطجعا . ومالت النسوة حولهما يتهانفن بضحكات وَنَشْوَى من أثر الشراب . ولكن زقاق الخمر كانت في وسط جمعهم بعضها ملئ وبعضها مفسوس ، ولا يزالون يعلّون منها الكؤوس كأسا بعد كأس . وهم كلما شربوا منها زاد بهم الظمأ وطلبوا المزيد . وفيما هم في ذلك لاح لهم قادم من أسفل الوادي فنظرت إحدى النساء إليه وقالت بلسان متلعثم : « هذا ضيف كريه . ما رأيته مرة إلا كرهت اللقاء » .

ثم همت من مكانها وهي تمايل فحدثتها أخرى ضاحكة في خلاعة وهي تقول :

« لنسقينّه معنا حتى يلين . فإنا لا نعرف الانهزام » .

وعلت الضحكات من الجميع حتى سمعها القادم وهو يعلو فوق جانب الوادي الصخري متكئا على رمحه ، ورفع نحوهم رأسه فرآه

الجالسون وصاح همّام فى شىء من الفزع .

— جساس !

فضحك مهلهل وقال : إنك لترهبه رهبة لا تحمل مثلها لمرة .

فضحكت النساء وقالت إحداهن :

— وحق مناة لو جاء مرة إلى هنا لأَبُلّنّ لحيته من هذا الزق حتى تعود صفراء !

فصاح همّام وهو يضحك :

حسبك أيتها الحرقاء فلسنا عن الزّق فى غنى .

وعلا ضحك الجمع ؛ وكان جساس قد بلغ موضعهم وحياهم فى هدوء ، فدعاه المهلهل إلى الجلوس وهو يضحك ، ولكنه لم يجد إلى المرح . وجلس صامتاً معبس الوجه ، مضطرب الأنفاس ومد رمحه أمامه وجعل يعبث فيه بأصابعه وكفه . ويقرع به الصخر حيناً أو يرسم به على الأرض خطوطا . فقال له همام ضاحكا

— هل لك فى كأس يا جساس ؟

فأطرق جساس وزادت عبسته عمقاً وقال فى صوت خافت

— قد حرمتها على نفسى . وأنت أولى بها .

فقال المهلهل يمازحه :

— لعل لك ثأراً فآليت لا تشربُ حتى تدركَه .

فقال جساس فى مرارة :

— بل ينبغى للعبد ألا يَطرب .

فلم يرُق أخوه همام إلى جوابه وقال :

— ومَن العبد ويحك ؟ إنك جساس ابن مره .

فقال جساس مسرعا وقد نظر إلى أخيه حانقاً : « وهل ينبغى لابن مرة إلا أن يكون عبداً ؟ » .

ولم يرُق النساء إلى هذا الحديث ، فقد كان منظر جساس لا يدع لهن جرأة عليه فقمن واحدة بعد أخرى وتسللن وتركن المجلس الكريه .

وما سمع همامٌ إجابة أخيه حتى انتفض كأن النار قد لدغته ، وهمَّ أن يرد على أخيه رداً قاسياً لولا أنه رأى عبداً يقبل وهو يحمل على كتفه شيئاً ضخما . فنظر إلى أخيه نظرة قاسية ، ثم صرف عنه وجهه إلى العبد القادم ، فإذا هو من خدم كليب يحمل على كتفه وَعِلا من الصيد .

فقام المهلهل نحوه مسرعا متعثراً يكاد ينكفئ ، ومد ذراعيه نحو العبد وساعده على إنزال الوَعِل . وصاح وهو ممتلئ بالسرور : « هدية بطل حسب . ريح كليب وحق أوال ! » .

فما كاد جساس يسمع صيحة المهلهل حتى وثب قائما ، وركز رمحه فى الأرض ووجهه ينم عن الغيظ والحقد . وقال يتمتم من بين أسنانه موجهاً الحديث إلى أخيه :

— تمتع بفضلات الكرام !

ثم انصرف وهو يطعن الأرض بسن رمحه حتى غاب وراء الكثبان .

ووقف همام أخوه ينظر فى أعقابه حتى غاب عنه وهو يردد غيظه حتى لا يَفسُد على نفسه متعة اليوم . ثم ذهب نحو صديقه ليشاركه فيما هو فيه ، فسمعه يسأل العبد :

— ومتى عاد وائل من صيده ؟

فقال العبد فى خضوع : حضر الساعة ومعه الصيد فسأل عنك حتى علم بأنك خرجت منذ الصباح . فأعطانى هذا وأمرنى أن ألتمسك حيث تكون لتذوق من صيده .

فصاح المهلهل فى حماسة :

« أنعمْ مَساء يا كليب ! إنك لتذكر على البعد زير النساء » .

ثم ضحك وشاركه همام فى ضحكه قائلا :

— كليب للصيد والحرب ، وأما المهلهل ... ...

ولم يتم همام قوله لأن المهلهل صاح ضاحكا يتم له كلمته .

— والمهلهل للمجون والشراب .

ثم علا ضحكهما وأقبلا على الوَعِل يساعدان العبد فى سلخه وإعداده للطعام .

٤

لم يحد وائل فى هدا الحو الحاثم اسىراحة إلى الإقامة فى مبازله ، ولم يكن فى نوره نفسه يرتاح إلى البرهه فى روصته ، وعاف الطعام فكان لا يصىب منه إلا إذا ألحب علىه حليله ، ثم لا ينال منه إلا سيراً . وعاف الشراب ، ومحالسه النّدمان ، وحبل إليه أن الحو الدى حوله كله يأتمر به ويحادعه . فكان لا يحد راحة إلا فى الفلوات ، يصرب فى كمدها ، ويغرق شجونه فى السير الطويل والركوب العنيف ، حتى تمنى لو ثارت الحرب لكى يحد فى صجة معامعها ما يبعد عنه تلك الوساوس التى ساورته . وكان الصيد أحبّ ما يحرج إليه ؛ فكان مطاردة الوحش لا يدع فراغاً لهواجس عصبه المكتوم ، تلك الهواجس التى كانت تزدحم فى صدره حتى يضيق بها كلما خلا إلى نفسه . وكان يحرج فى تلك المدة التى شمل فيها السكون منازل قومه وبوادبهم فيقضى فى الصيد يوماً أو أياماً ، ثم يرجع حيناً قصيراً فلا يلبث إلا قليلا ، ثم يعود إلى الفلوات يلتمس فيها التفريج عن قلبه المكروب .

قام يوماً من تلك الأيام من نومه فى الصباح الباكر ، فلبس ثيابه وأخذ قوسه وكنانة سهامه وهم بالخروج ، وكانت امرأته جليلة بنت مرة تنظر إليه وعيناها مغرورقتان بالدمع ، تتبع حركته

فى سكون ووجل ، والحزن يعصر قلبها . لم تدر متى يعود السلام إلى هذا الزوج الحبيب الذى قد تبدل منذ حين فصار لا يطمئن ولا يستقر . وكانت آلامها تزيد حتى لا تقوى على احتمالها كلما تذكرت أن سبب كل هذا الذى أصاب زوجها من الاضطراب ، إنما هو أخوها الذى أثار عليه النفوس وتجرأ عليه فى عينيه وأمام عينيه . ولم تستطع هى ولا أحد من أهلها أن يسلّوا من قلبه الحقد الذى ملأه وملك عليه زمامه . فقد حدثته وتوسلت إليه وسمعت أمّها تجادله وتحاول أن تثنيه عن عداوته . وسمعت أباها وهو يعنفه ويغلظ عليه القول . ولكن ذلك ذهب مع الريح وبقى حساس تغذى وساوسه وعداوته بكل ما استطاع أن يلتمسه من علل : فكان يرى فى كل نظرة من نظرات وائل احتقاراً ، وفى كل كلمة من كلماته إهانة ، وفى كل فعل من أفعاله آية جديدة على كبريائه وطغيانه ؛ ولج به الخبال حتى حلّت هذه الوساوس محل العقيدة لا يتزعزع عنها ولا يقبل المجادلة فيها .

فكان هذا أبعث على زيادة تألمها واشتداد حيرتها . فلما رأت زوجها خارجا ولم يستقر فى منزلها إلا بعض ليلة برّح بها الحزن ووقفت فى سبيله تنظر إليه صامتة والدمع يجول فى عينيها .

فنظر إليها وائل واهتز فؤاده إشفاقا وقال لها وهو يحاول الابتسام :

— مالى أراك مكتئبة يا جليلة ؟

وكأن هذه الكلمة قد حلت عقده حزنها فانفجرت تبكى ، وألقت يديها على كتفيه وطوقت بهما عنقه ، وأمالت رأسها إلى صدره وهى تنشج بالبكاء .

فوضع وائل يده على رأسها ثم ضمها بعطف إليه وقال لها : « إننى لا أطيق بكاءك يا جليلة فما الذى يحزنك ؟ » .

فقالت له فى بكائها : « لو كنت تتألم لحزنى لما غبت عنى كل تلك الأيام . إنك لم تأت من صيدك إلا الليلة وأراك تبكر بالخروج » .

فقال لها وهو يحاول الابتسام لتهدئتها : « أتحبين أن تكونى معى يا جليلة ؟ لقد وددت لو ركبت الخيل ورميت بالقوس فإنك خير من أحب صحبته » .

فقالت جليلة وفى صوتها رنين اللوم : « بل تريد أن تبعد عن منزلك وتتعمد أن تغيب عنى » .

وكأنها أدركت ما فى قولها من قسوة فقالت :

« بحق مناه يا وائل ابق معى بحق أوال لاتخرج اليوم عنى » .

فقال وائل يلومها : « كأنك تخشين علىّ إذا خرجت ؟ » .

فأسرعت قائلة وقد رفعت رأسها ونظرت فى عينيه : « بل أخشاك . إننى لاأخشى عليك فليس فى قبائل ربيعة من يتجرأ عليك » .

فزمّ وائل شفتيه وصمت لحظة ، ثم قال كأنه يحدث نفسه : « لبس فى ربيعة من يتجرأ على ؟ » . ثم تدارك كلمته فضحك وقال فى لهجة استخفاف :

— لا تخشَىْ يا جليلة . أعدك أننى لا أتعرض لجساس . أهذا ما تعنين ؟

فنظرت جليلة إلى وجهه ورفعت كفيها إلى عارضيه فضمتهما بينهما وقالت بصوت متهدج من أثر الشجون :

— ولـكنى لا آمن أن تبدر منه بادرة فلا تملك نفسك .

فقال وقد مد يده إلى رأسها يمسح بكفه على شعرها :

— لو بدرت منه بادرة لنحملتها من أجلك . أبهذا ترضَيْن ؟

ثم ضمها إلى صدره ضمة أودعها ما فى قلبه من المحبة لها .

فقالت جليلة فى عناد :

— وماذا عليك لو أقمت اليوم ؟ إنك لم تذق راحة منذ أيام وأولى لك لو بقيت اليوم فى منزلك .

فقال وائل متردداً :

« وما الذى يحملك على هذا القول يا جليلة ؟ لقد طالما خرجت وأقمت الأيام فى صيدى ولم أر منك مثل هذا الحزن الذى أراه » . وسكت حيناً ثم قال ضاحكا :

— لقد قلتِ لى هذه الليلة أنك كنتِ عند عرافة تغلب .

وهذه تميمتها قد وضعتِها بيدكِ حول عنق . ولم أرد أن أعصيك حتى أزيل عنك خوفك . فهل هى التى أمرتك بأن تُقعدينى ؟

فحولت عينيها عنه ولم تجبه ؛ فضمها إليه باسما وقال لها :

— إذن فهى التى حذرتكِ من خروجى ، وأنت تريدينى على الاحتجاب حتى تأذن لى عرّافتك .

فتبسمت جليلة ابتسامة ضئيلة وأخفت وجهها فى صدره وقالت متمتمة .

— وماذا عليك لو أطعتَنى ؟

فقال لها : أتحبين أن يتحدث الناس أنى خشيت أن أحرج ؟ لقد تحدثت الأندية بما قال جساس . أتريدين أن تتحدث المجامع بأنى أحتجب خوفا حتى تأذن لى عرافة تغلب ؟

فقالت جليلة فى عناد وهى تنظر إليه :

— ألا تطيع رجائى ؟ ألا تجيب توسلى ؟ وماذا عليك أن تصرف عنا سخط مناة الذى بلغت أمره ؟ بحق حبى لك أطعنى إذا لم تجد من حبك لى ما يحملك على البقاء ، أَبق اليوم إلى جانبى . لا يستطيع أحد أن يقول أنك خشِيت الخروج . أنت فارس العرب وسيد ربيعة كلها ، ولن يستطيع أحد أن يقول أنك تخشى .

فحول وائل عينيه عنها مرة أخرى حتى لا يرى دمعها وقال : « إن حبى لك يا جليلة لا يعدله عندى فى الحياة حب . ولكنك

لا يحبين أن يتحدث الناس عنى حديث السخرية أو يظنوا بى الخوف ، مُريني أن أخرج حتى أكون قد أطعتك . مريني أن أخرج إلى صيدى وأن أُخرس لسان عدوى ، وأعدك أنى لن أتعرض لجساس ولن أمَسَّه بسوء ولو تعرض لى » .

ثم تخلص برفق من بين ذراعيها ، واتجه نحو باب الخيمة خارجا . ولم تجد جليلة بداً من أن تمسك عن الحديث ، ووقفت تنظر إليه فى صمت وقلبها يخفق ، وعيناها لا تزالان تدمعان .

ولما خرج وائل إلى فناء منزله لاح له يربوع يجرى من جانب الوادى ، فأسرع إلى قوسه فوضع فيها سهماً فرمى اليربوع قبل أن يبلغ الجانب الآخر من الوادى فصرعه فى مكانه ، وقد أصاب السهم رأسه . وأراد عند ذلك أن يجعل وداعه مرحاً فنظر إلى زوجته وضحك ضحكة عالية وقال لها : « هذا عشاء عساف يا جليلة » .

فلم تملك جليلة إلا أن تبسمت وصاحت به .

— حرستك مناة !

ووقفت تنظر إليه وهو سائر وتتأمل قامته المعتدلة ، ورأسه المرفوع وخطاه الواسعة . وكان كلبه عساف يسير كما اعتاد فى آثاره يتشمم مواطئ أقدامه .

ولما بَعُدَ وأوغل بين الكثبان أسرعت جليلة خارجة إلى

طرف الوادى ، وسارت تهرول حتى دخلت فى شِعب من شِعابه وقصدت إلى بيت العرافة لتلتمس لوائل عندها بركة إلٰهيها مناة وأوال .

سار وائل حتى بلغ مرعى خيله ، وكانت فى واد مجاور ، والعبيد مشتتون فى أنحائه بعضهم يتعهدون الأمهار ، وبعضهم يعلم ما شب منها ويروضها ، فنادى كليب أحدهم وأمره أن يأتى له بالرباب ، وكانت أحب خيله إليه . فأسرع العبد إليها حتى قادها إليه ، فأقبلت الفرس تسير إلى سيدها كأنها صديق يسعى إلى صديقه ، حتى إذا قَرُبت منه جعلت تحرك رأسها وهى تصهل كأنها تُبدى سرورها بلقائه ، ورفعت ذيلها تهزه ، وضربت الأرض بحوافرها كأنها تطرَب إلى ركوبه وترغب فى الركض تحته . فمسح كليب رأس الفرس وعنقها وهو يبتسم لها ، ثم وثب على ظهرها وركبها عُرْياً ، وقد أخذ كنانة سهامه فى كتفه اليسرى ، وجعل القوس فى يمناه . ولما استقر فى ركوبه مسح رقبة الفرس ، وقال كأنه يخاطبها : « هيا يا رباب » .

وكأن الفرس قد فهمت خطابه فانطلقت تعدو مثل وعل برى ، وغابت براكبها وراء ثنية الوادى ، وانطلق الكلاب يجرى فى أثرها يقفز فوق الحجارة لا يلوى على شىء .

قضى وائل ذلك اليومَ فى الصيد حتى مالت الشمس نحو الغرب

ثم عاد وقد حمل زوجين من وُعول عصماء تكاد الرباب تنوء تحت ثقلها ، وقد تدلى زوج منها عن يمين وآخر عن يسار . فلما بلغ مرعى خيوله فى الوادى المجاور لمنازله أسرع نحوه العبيد فوثب عن فرسه وقال ينادى الغصين عند ما وقعت عينه عليه .

— أين المهلهل اليوم ؟

فتردد العبد حيناً ثم قال :

— لا أظنه اليوم فى منازله .

فأدار وائل وجهه وابتسم عند ما سمع جواب العبد . إذ علم أن المهلهل أخاه لابد قد خرج إلى بعض لهوه كما اعتاد فقال للعبد :

— احمل إليه وَعِلا من هذه أينما كان يا غصين .

ثم سار نحو الروضة وقال وهو لا يلتفت :

— قسموا سائر الصيد بينكم وامسحوا الرباب ثم قربوها منى عند الروضة .

ومضى نحو روضته والعبيد يسارعون إلى الفرس ليزيلوا ما علق بها من أثر الدماء .

ومضى نحو روضته ليقضى بها حيناً كعادته والكلب عساف يسير فى آثاره حتى بلغ مدخلها فسار بين شجرها الملتف وأقعى الكلب عند طرف منها ينظر فيما حوله وهو يلهث .

وقضى وائل هناك ساعة يسير بين الخمائل ويتأمل زهرها

وأغصانها حتى بلغ إلى خميلة القنبرة ، فوقف عندها هنيهة ، ولما وقعتْ عينه على العش المحطم المهجور سرت فيه هزة من الغضب ، ولـكنه صرف عينه عنه سريعاً ومضى إلى خميلة أخرى حتى لا تُـلِح عليه الذكرى الأليمة .

ولم يلبث أن عاد إليه الهدوء بعــد أن سار حيناً فوق الرمال الناعمة التى جعّـد سطحها مرُّ الريح فبدا تحت عينيه مثل الغدير قد انداحت عليه خطوط متراقصة من لمس النسيم . واطمأن إلى أن حماه لا يزال عزيزاً لم تستبحه اليوم قدم جريئة . ثم أتى إليه أحد العبيد والرباب تسير فى أثره بغير أن يمسك لجامها تصهل وتشول بذنبها . فأقبل نحوها وائل ومر بكفه على رأسها وعنقها وهى تشمه وتتهانف له ، ثم وثب عليها وسار نحو منزله .

ولمـا بلغ آخر وادى الروضة رأى عن بعد شخصاً يسير مسرعاً وهو يخبط الأرض بزج رمحه فتأمله ، فإذا به جساس . وكان متجهاً نحو مراعى إبله فى الوادى المجاور . فاعترته لمرآه قبضة لم يتمالك منها نفسه ، ولـكنه أخذ يصرف نفسه عنها ، فاستعاد صورة جليلة لعلها تَسُـلُّ من صدره تلك الموجدة التى كان يجاهد نفسه فى مغالبتها . وفيما هو فى ذلك سمع كلبه ينبـح نباحاً شديداً ، فالتفت نحوه فإذا به يعدو مسرعا نحو جساس فى غضب كأنه يريد أن يهجم عليه فيعقِـره . فهمز فرسه لـكى يدرك الـكلبَ الغاضبَ

وصاح به ليثنيَه ، ولكن الكلب اندفع فى شراسة حتى وثب على جساس ، فما أدركه وائل حتى كان قد مزق طرف ثوبه وعاد إليه يريد معاودة الكرة عليه . فوقف جساس والرمح فى يده يريد أن يقذفه على الكلب ، ولكنه عدل عن ذلك فجأة ، واتجه نحو وائل فنظر إليه وشخص إليه ببصره حيناً لا يطرف ولا يتحرك . وخشع الكلب عند ما أبصر سيده قريباً منه وسمع زجره . وكاد وائل ينطق بكلمة يزيل بها غضب صهره الحانق ، ولكنه أوقف الكلمة على لسانه إذ سمع جساساً يقول له بصوت أجش :

« هلم إذا شئت فأنت أولى بهذا ! » . ومد رمحه كأنه يريد نِزَالا » .

فغلا الدم حتى ملأ رأسه ووضع يده على مقبض سيفه وهمّ أن يسرع نحوه فيُغمدَ السيف فى صدره ؛ فإنه لم يزدد عليه إلا جرأة ، ولم يزدد غليله وحقده إلا اشتعالا . وهذه هى كلمته تنطق بما كان فى قلبه من تحدٍّ بذىء .

ولكنه تردد بعد قليل ورفع يده ونظر إليه نظرة طويلة وهو صامت ، ثم أدار عنه وجهه وقال فى مهارة :

— لقد وعدت جليلة .

ثم همز فرسه وأسرع عائداً إلى منازله وهو لا يكاد يرى ما أمامه من شدة غضبه المكظوم . ووقف جساس لحظة ينظر فى

آثاره وهو مضطرب القلب يكاد يتمزق من الغيظ ، وقد طعنته الكلمة التى سمعها فى صميم فؤاده وزادت حقده التهابا .

ولما بلغ وائل ساحة منازله هب من فيها سراعا يتلقونه فوثب عن فرسه وسار نحو خيمته ، ولما سمعت جليلة ضجة مقدمه قامت مسرعة فى لهفة تريد أن تبلغ باب الخيمة قبل أن يدخل ؛ فقد كانت تريد أن تتريث به قليلا قبل الدخول حتى يطأ خطوطا رسمتها بدقيق عند بابها . فلقد ذهبت فى الصباح بعد أن خرج زوجها إلى عرّافة تغلب واستعانت بها أن تدبر لها من سحرها وكهانتها ما يمنع الشياطين عن ولوج بيتها ، ويحفظ لها الزوج الحبيب من وثباتها . فصنعت لها العرافة دقيقاً تخط به رسماً عند مدخل البيت لكى يطأه وائل إذا عاد داخلا وتذرّ منه فى أركان البيت وتحت أوتاده وعند وسادته ، فإذا أصاب الزوج بخفه شيئاً من ذلك الدقيق فى دخوله أو انصرافه أمن المهالك ، وكان محروسا فى خطاه .

ولكن وائلا أقبل مسرعا ، فلم تدركه حتى دخل الخيمة ، فشردت ببصرها نحو الخطوط المرسومة عند الباب لترى هل مسّها بخفه ، ولم تفطن وهى فى انشغالها بذلك إلى ما كان على وجهه من علامات الغضب . ثم تنبهت إلى أنه دخل ولم يبسم لها ولم يأخذها بين ذراعيه كما عودها . فنظرت نحوه فى دهشة فرأت

وجهه مربدا وهو يتعمد ألا ينظر إليها . فقالت له فى صوت العتاب :

— عمت مساء يا بن العم .

فلانت نظرته قليلا ، ثم قال وعليه هيئة الاعتذار :

— عمت مساء أيتها الحبيبة !

ثم عاد إليها ففتح لها ذراعيه يحاول أن يخفى عنها اضطرابه وغضبه ، فألقت نفسها بين ذراعيه وقالت مترددة .

— لعلك قضيت يوماً هنيئاً فى رياض الخُزامى .

فقال وهو يلفها بيمناه ويشم شعرها بشغف ؛

— وأين الخزامى من عطرك ؟

ثم أرسلها وحاول أن يصرف نظره عنها . فخست فى صدره وطوقته بذراعيها وقالت بصوت خافت فيه رنة الحزن :

— أحسّ كأنك غاضب .

فقال يحاول صرفها عن حديث جساس :

— كيف مضّيت أنت اليوم يا جليلة ؟ هل عاودك الدوار ؟

وكانت جليلة حاملا يعتريها دوار الوَحَم بين حين وحين فيصيبها بضيق شديد .

فقالت جليلة :

— ما أبالى اليوم دواراً ، قل لى هل من شىء أغضبك ؟

ثم تشبثت به فى إصرار واستمرت تقول :

— قل لى بحق عندك . هل تعرض لك جساس ؟

فلم يستطع كليب أن يكذب فى جوابه بعد أن ألقت إليه ذلك السؤال الصريح .

فقال : « ولـكنى وعدتك يا جليلة » .

ثم سار داخلا حتى بلغ صدر البيت فجلس على فروة قد فرشت فيه ، وذهبت جليلة إلى ناحية أخرى من الخيمة فحملت إناء مملوءاً باللبن وأتت به فقدمته إليه وهى صامتة ، ثم جلست إلى جانبه تنظر إليه فى شىء من الوجوم ، فشرب كليب بعض اللبن ووضع الإناء إلى جانبه وقرّب جليلة إليه وجعل يحدثها بما كان من أخيها وهى تسمع مطرقة وقد برّح بها الألم .

ولما انتهى من وصف ما حدث من جساس نظر إليها بابتسامة مرة وقال : « ولـكنى مع ذلك أرجو أن يعود إلى صوابه » .

فقالت جليلة : «أنت سيد ربيعة كلها ولا يضرك نَـزَق شاب مثله » .

فقال كليب : « أترضَـيْن لى أن أُهان ؟ » .

فقالت بصوت ثابت : « حاشاك أن تلحق بك إهانة . ومن يظن أن حلمك عن جساس مبعثه الضعف عنه ؟ »

قال كليب : « لقد عرفتُ العرب يا جليلة ، لا يُـكبرون إلا العزيز ، ولا يُجِـلون إلا المنيع » .

فرأت جليلة صدق قوله ، وعلمت أن فعل أخيها يُصَرِّى عليه الناس ويُنزل من هيبته ، ولكنها آثرت أن تقلل من حطورة الأمر حتى لا تزيد غضبه ، وعزمت على أن تسعى مرة أخرى عند أخيها وأبيها ، لكى توقف جساساً عند ذلك الحد ، حتى لا تنقطع الرحم بينه وبين زوجها ، ولا تقع الفرقة بين قومها . ثم أخذت تلاطف كليباً وتسليه ، واستطاعت بعد قليل ما تستطيعه الزوجة المحبة وحدها ، فإذا الحديث يعود إلى عذوبته ، وإذا بالبطل الفتاك يرتد حبيباً رقيقاً ، يتحدث إلى زوجه الحبيبة واصفاً لها ما فعله فى يومه من مطاردة الوحش ، وصيد الوعول من قُلَلِ الصخور وبطون الوديان ، ويسهب فى مدح فرسه الرباب وكلبه الأمين عسَّاف ، وسداد قوسه ونفوذ سهمه .

فقالت جليلة باسمة : « وأين ذهب الصيد ؟ » .

فقال : «أهديت مهلهلا أخى وَعِلا ليكون طعاما له فى شرابه ، وأغلب ظنى أنه اليوم لاهٍ مع أخيك همام ، وتركت سائر الصيد للعبيد » .

فقالت وقد التفتت إليه فى دلال : « وأين إذاً نصيبى » .

فضحك وضمها إليه وقال : « نصيبك وائل نفسه يا أيتها الحبيبة » .

فانحنت برأسها على صدره وجعل يعبث بشعرها الأسود ، ثم

همس فى أذنها يقول : « ستجدين بعد حين عنى سلوة يا جليلة » .

فقالت جليلة فى شبه صيحة : « ومن ذا يُسْليني عنك ؟ »

فضحك وقال : « ولدك الذى سيقبل بعد حين » .

فقالت وهى تحرك رأسها على صدره : « ما يزيدنى ولدى إلا حباً لك » .

ثم استسلما معاً لأحلام المستقبل العذبة .

٥

أصبح الصباح فقام وائل كعادته مبكراً يريد الخروج ، وهمت جليلة أن تعيد عليه رجاءها أن يبقى معها فى البيت كما فعلت بالأمس ، ولكنها تذكرت جوابه وترددت ؛ إذ أيقنت أنها لن تجد منه فى يومها إلا مثل جواب أمسها . فما كان سيد ربيعة ليرضى أن يطيع امرأته ويبقى فى بيته من خشية قالة عرّافة تُخيفه من اعتداء عدوه . فليس فى قبائل بكرٍ أو تغلِب من تُوقع عداوتُه الرعبَ فى قلبه ، وما كان ليتوارى من ذلك العدو لو وقف أمامه بسيفه مصلتا ، أو برمحه مسدداً ؛ فقد عرف وائل بن ربيعة منذ صباه كيف يلقى الأعداء فى وجه السيوف والرماح . وما كان ليطيعَها فيتحدث شبانُ القبائل أنه خَشىَ الخروج من بيته حتى تأذن له العرافة بعد سكون ثورة الأخطار .

تركته جليلة يمضى بغير مراجعة ، وجعلت تكاوح نفسها فيما تُحِسُّه من الخوف ، فقد لبس زوجها التميمة السحرية ونام على الوسادة التى ذرت من تحتها الدقيق الأبيض ، ولعله قد مس بخفه الخطوط المرسومة عند مدخل الباب وهو داخل إليه فى الليل ، فإذا فاته ذلك فى الأمس فلعله يصيب منه فى خروجه ذلك اليوم ، ولن

تتخلى عنه الآلهة وقد قدمت لها القرابين عندالعرافة من لبن وتمر ، ومن لحم وسمن ، واكتفت بأن تخرج عند الباب وتحاول أن تجرّه إلى الرسم السحرى عنده حتى تطمئن إلى أنه عائد إليها فى المساء آمناً سالماً . فلما خرج استوقفته لتودعه ، ولكنه كان قد أسرع فلم يقف إلا بعد أن تعدى الخطوط المرسومة بالدقيق ، واضطرت هى أن تذهب إليه لتضع رأسها بين ذراعيه الممدوتين لها . ولكنها كانت بادية الحَيْرة ، تنم نظرتها عن أنها تريد أن تقول له قولا ولا تجرؤ عليه ، ففطن وائل إلى ذلك وعزاه إلى ما فى قلبها من القلق عليه . وأراد أن يُذهب ذلك الاضطراب عنها ، فقال لها باسماً وهو يضمها : « لا تراعى يا حليلة ، فهذه هى تميمتك » . ثم أمسك بمثلث من الجلد تحت ثيابه . فتبسمت جليلة وسُرِّى عنها بعض التسرية وقالت له :

— سر فى حراسة جميع الأرباب . أخارج اليوم إلى صيدك ؟

فقال لها وهو يمسح بيده على رأسها :

— لا . ليس اليوم الصيد يا جليلة ، فقد علمت أن الإبل لم تشرب منذ خمس .

فصاحت جليلة فى فزع مكتوم :

— إذن فأنت اليوم فى الحمى .

فتبسم وائل وقال وهو يرسلها فى رفق :

— لا تُراعى يا جليلة ، فلن أتعرض لجساس كما وعدتك . لن أتعرض له وإن تعرض هو لى .

وسار عنها حتى أخفته كثبان الوادى عن عينيها .

قضت جليلة ذلك الصباح وهى مكتئبة ، فلم تذهب إلى زيارة أحد من أهلها ، وعاودها دوار الحمل فاستلقت على الفراش حتى يزول عنها . وبقيت كذلك ساعات تفكر فى أمر زوجها وأخيها ، ورنّت فى أذنيها أقوال جساس وهى تحدثه فى بيت أبيها ، وتمثلت لها صورته وهو يحملق فيها ثائراً ، واحتوشتها المخاوف فكانت تارة تتصور زوجها وقد سطا بجساس ، ثم تتصور أخاها وقد سطا بزوجها ، ثم يعود إليها الهدوء حينا فتطمئن إلى حماية مناه وأوال ، ثم ترتد إليها الوساوس فتهزها مرة أخرى وتضنيها .

وفيما هى كذلك إذ سمعت صراخا يتعالى من بعيد من ناحية خيام أخيها جساس . وكانت فى الوادى المجاور ، فذهب ظنها إلى أن مكروها قد أصاب شقيقها . فقامت مذعورة ونسيت دوارها وحل الخوف على أخيها محل القلق على زوجها . وسارت تترنح حتى اعتلت جانب الوادى تتوقَّلُ فى الرمال والصخور ، ثم هبطت إلى منازل جساس فرأت فى ساحتها جمعا فأسرعت تهرول حتى اقتربت منه ، فرأت سعد بن شميس الجرمى ضيف خالتها البسوس ، واقفا يتحدث إلى من حوله بقصته .

فسألت بعض الوقوف فى لهفة : « أين جساس ؟ » .

فأشاروا لهـا نحوه ، وكان واقفا عند خيمة خالته فى جمع مضطرب هائج قد قامت من وسطه امرأة تصيح صيحات متقطعة تعلو على اللغط الذى حولها . فأسرعت نحو الجمع الـكثيف وقد داخلها شيء من الاطمئنان منذ عرفت أن أخاها لم يخرج بعدُ من بيته . وشقّت الصفوف حتى صارت إلى جوار المرأة فإذا بها خالتها البسوس ، وهى حاسرة رأسها قد شقت درعها وتلطم وجهها فى هياج يشبه الخَـبَل ، وهى تصيح : واذلاه ! وكان جساس واقفا إلى جوارها صامتا والغضب يتطاير من عينيه . فاقتربت من خالتها وحاولت أن تهدئ منها وأن تخفض من صراخها ، وقالت لها :

— ماذا أصابك يا خالة ؟

فلم تلتفت المرأة إليها بل استمرت تصيح وتتكلم ، وهى بين حين وحين تصرخ صرخة مفزعة ترن فى الوادى قائلة : « واذلاه ! » . ورأتها تختلس النظرات إلى جساس وهى تصرخ كأنها توجه لسَـعَات تأنيبها إليه ، وهى تقول :

— ليتنى لم أنزل سعداً فى جوارى ، بل بعثته إلى جوار عزيز لا يناله الذل عنده . ليتنى لم أر يوما هذه المنازل ، ولم تطأ قدماى هذه الساحة ، فليس فيها من يحمى جاره ولا من يدفع عنه الاعتداء.

وما زالت تهتف بمثل هذه الأقوال وتتجه بنظراتها إلى جساس

وهو صامت مطرق أصفر الوجه كأنه يقطر السم من صفحة وجهه .
ولم تستطع جليلة أن تهدئ من ثورتها ولا أن تسمعها لفظا من كلامها . فإنها كانت تهدر وتصرخ ، لا ينقطع صوتها ولا تتردد الألفاظ على لسانها . فذهبت جليلة نحو جساس لتسأله ، ولكنه صرف وجهه عنها ، وقال فى صوت الحانق كأنه يحدث نفسه :

— لو كانت خالتى فى جوار عزيز لما هانت ولما هان ضيفها . ولو كانت فى آل أبيها منقذ لحماها بنو تميم قومها ، ولكنها نزلت فى جوارى ، فهذه ناقة ضيفها ترتع والسهم فى ضرعها .

وأشار بيده نحو ناقة تجرى بين الكثبان وهى تضطرب وتصيح صياحا عالياً وفى ضرعها سهم مرشوق يهتز بين رجليها إذ تجرى .

ولم يُرِد جساس أن يبقى إلى جوار أخته فتحرك لتركها ، فأمسكت جليلة بذراعه وقالت بجفاء :

— ماذا تقول يا جساس ؟ وما معنى كل هذا ؟

فنظر جساس نحوها فى قسوة وتخلص من قبضتها وقال :

— لا أقول شيئاً سوى أننى رجل ذليل الجار . تُرْمَى ناقة ضيف خالتى بالسهم فى ضرعها وهى فى جوارى .

فأدركت جليلة ما كان كله ، ولم ترد أن تطيل معه الحديث . إنه — بغير شك — زوجها قد بر بيمينه ، ورمى الناقة الغريبة

عندما رآها تَرِد الماءَ مع إبل جساس .

ثم سمعت أخاها يقول وهو ينصرف عنها :

« ولكنى سأثأر . وحقّ مناة ليكونن ثأرى عظيما لناقة جارى » .

فأسرعت جليلة من ورائه حتى أدركته وعادت فمدت يدها وأمسكت بذراعه وصاحت به :

— أتثأر لناقة يا ابن مرة ؟ إنها لِهمة ضئيلة .

فضحك جساس ضحكة مرة وقال : « لأقتلن فيها فحلا » . ثم مضى مسرعا يقصد نحو سعد بن شميس :

فشرد خيال جليلة فى كلمات أخيها : فقد عرفته لا ينطق لغواً ولا يفوت أمراً عقد عليه نيته ، فما ذلك الفحل الذى سيقتله ؟ أى فحل هذا الذى يقتله جساس فى الثأر لسراب — هذه الناقة العجفاء سراب ؟ وكادت المخاوف تتجسم لها تزيد من تهويل الخيال لولا أنها صرفتها وردتها . فما كان لجساس إلا أن يقتل فحلا من إبل زوجها فى انتقامه .

لقد كان لزوجها فحل ليس فى إبل العرب فحل مثله . هو الفحل «غلاّل» الذى تُضرب الأمثال بعظم هامته وعلو قامته ، وقوة هديره وشدة وطأته . فهو يريد أن يقتل هذا الفحل العزيز على زوجها لكى يفجعه فيه كما فجع جاره فى ناقته الهزيلة . وتبسمت

عند ذلك تبسم سخرية من أخيها الذى يُسِفّ ويدفعه حنقه وحقده إلى مثل هذا المراء .

ووقفت حينا تنظر فى اشمئزاز إلى خالتها الشعثاء وهى تصرخ صراخها المنكر فى ثيابها الممزقة ، ولم ترد أن تطيل الوقوف عند مثل هذا المنظر البشع ، فعادت أدراجها نحو بيتها .

ولكن صرخاتها كانت تلاحقها وهى تنشد صائحة :

لعمرىَ لو أصبحت فى دار منقذ
لما ضِيم سعد وهو جار لأبياتى
ولكننى أصبحت فى دار غربة
متى يعد فيها الذئب يعدو على شاتى
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل
فإنك فى قوم عن الجار أموات

وكانت ألفاظ أخيها تعود إليها بين صرخات خالتها وترِنّ فى أذنيها إذ قال : « لأقتلن فيها فحلا ؟ » فتسائل نفسها : ماذا لعله يقصد سوى أن يكون ذلك الفحل غلالا .

وذهبت إلى فراشها عقب عودتها ، فاستلقت فيه ضعيفة ، ولا تزال الوساوس تعاودها حتى أقبل زوجها عند المساء ، فدخل الخباء إليها قبل أن تنهض للقائه . وقد سرى عنها عندما رأته باسما مرحا كثير الدعابة والفكاهة . فقضى معها صدر المساء فى سمر

ثم قاما معا فأصابا شيئا من الطعام فإنها لم تذق منذ الصباح طعاما . ثم جلس إليها يحدثها ويضاحكها حتى زال عنها أثر الدوار الذى ألم بها ؛ ولكنه لم تتكلم بشيء عن رميه ناقة سعد بن شميس جار البسوس ، ولم تفاتحه جليلة بالأمر خوف أن يعرف منها ما قاله جساس .

•

جاء فى جوف الليل طارق يزور كليبا ؛ فانتحى معه مكانا فى جانب الخيمة ، وجعل يساره بعض الحديث ، ثم مضى بعد حين وعاد كليب إلى مكانه مع زوجته ، وأخذ يحدثها بذكر أيامه الماضية ومواقعه المشهورة مع قبائل اليمن منذ سنين ، ولكنه لم يذكر لها كلمة عن خالتها البسوس ، ولا عن الناقة سراب ، ولا عن أخيها جساس .

وكانت جليلة منذ خرج الزائر تحب أن تستطلع من زوجها الخبر الذى حمله الرجل إليه ؛ لأنها خشيت أن يمشى الوشاة بينه وبين أخيها بالكذب فيزداد ما بينهما من الكره ، ولكنها لم تجد وسيلة لفتح أبواب الحديث الذى يؤدى إلى ذلك الاستطلاع . غير أن كليبا ذكر فى عرض كلامه فحله غلالا ، وجعل يعدد محاسنه بين الإبل ؛ فاستخلصت جليلة من ذلك أن الزائر قد حمل إليه ما قاله جساس ، وتهديده بالانتقام بقتل «غلال» ، فتنفست الصعداء وقالت فى نفسها : « إن كليبا لن يزداد إيغالا فى عداوة أخيها ما دام قد عرف أن انتقامه ليس موجها إلا إلى فحل من الإبل » .

٦

ماتت «سراب» ناقةُ سعد بن شمس الجرمى صيف البسوس .
وما كان موت ناقة ليقع على قوم مثل ما وقع موت هذه الناقة على بنى مرة قوم جساس . لقد حاولوا جهد طاقتهم أن يترفقوا فى نزع السهم من ضرعها وأن يداووا جرحها ، وكانوا يتلهفون على سلامتها كأنها مريض عزيز يحيط العواد بفراشه .

فلما ماتت اهتز لها الناس وقضوا أياما فى وجوم يتوجسون من خوف ما قد تطالعهم به الأماسى والأصباح . ولكن الأيام مرت أسابيع بعد أسابيع ولم يحدث حَدَثٌ مما كان يخشون ؛ فهدأت المخاوف وأخذ شبان تغلب يتفكهون فيما بينهم بتهديد جساس كليباً أن يقتل فحله «غلالا» ؛ فقد عرف العرب أن يثأروا بطلب الدماء لرجالهم ، ولكن هذا جساس يثور لطلب فحول الإبل انتقاما للنياق ! ثم هذا هو يسكن ويركد ويخشع بعد أن أظهر له وائل بن ربيعة أنه يبر بيمينه ويحقق وعيده ، ولا يبيح لأحد أن يستبيح حماه . وأى امرئ يكون هذا جساس إذا قيس بسيد ربيعة المنيع الذى لا يلتفت إلى ورائه لمثله ؟ إنه تجرأ واعتدى على فارس تغلب المخيف ، وكان اعتداؤه بدعة لم يجرؤ عليها من هم أعز منه وأقوى جنانا ، حتى إذا ما سطا به كليب وأظهر له نواجذه غضبا

خشع ولزم الحدود ، وتحامى أطراف الحمى .

وكان جساس فى أثناء هذه الأيام يسمع الهمَسات التى يتفكه بها شبان تغلب فتقع فى نفسه وقع السهام ، وداخله من ذلك همٌّ مضن حتى حال لونه ، وصار لا يأنس إلى أهل ولا صحاب ، ولا يحضر مجالس بكر فى نواديهم . فما كان أحد يراه إلا فى الأطراف البعيدة الموحشة سائراً وحده ، فإذا أنس إلى أحد من الناس فما كان أنسه إلا إلى فتى ضئيل من أهون بيوت بكر وأضعفها حولا ، فى ضعيف لم يشترك مرة فيما يشارك فيه الفتيان من لهو أو جد ، ولم يعرف أحد له محلا فى أمر عظيم . كان هذا الفتى عمرا بن الحارث البكرى غريم الكلب عساف الذى عرف الناس جميعا قصته .

كان عمرو يحمل لوائل بن ربيعة صنفا من الكراهية عجيبا . لا يتحمل أن يسمع ذكر اسمه . فإذا سمعه اضطرب واختلج ومضى فى سرعة تشبه الذعر ، ولكنه كان لا ينطق بكلمة تنم عن كرهه ولا يشارك فى الهمسات التى يتهامس بها شبان بكر عن طغيانه وعسفه . وقد وقع فى قلبه هذا الكره العجيب منذ يوم بعيد ، إذ كان يسير على مقربة من روضة وائل بن ربيعة فنبحه الكلب عساف الواقف عند مدخلها وهجم عليه فمزق ثيابه وعضه فى فخذه فكاد ينزع نساه . فجرى الفتى فى ذعر خيفة أن يراه الأمير المخيف فيوقع به عقوبة لا قبل له بها ، كما كان يوقع بكل من

تجرأ واقترب من موضع عساف . وأحس عند ذلك ذِلَّـةً طعنت قلبه ، ولـكنه لم يستطع أن ينفس عنها بكلمة إلى حميم .

منـذ ذلك الحين انقلب شعوره بالذِّلة حقداً يأكل القلب ، وزادت كراهته عمقا وقوة على مر الأيام كلما تبين له مقدار عجزه عن الانتصاف من الأمير العنيف . وسماه الناس منذ ذلك اليوم غريم عساف سخريةً وازدراءً .

فلمـا وقع ما وقع بين جساس وكليب ، ورأى ما آل إليه أمر جساس من مباعدة الناس وانطوائه على نفسه ، أنس ذلك الفنى إليه فأطلعه على خبيئة نفسه ، فإنه إذا لم يستطع أن ينتقم بنفسه من الأمير العزيز قد يقوى إذا شاركه جساس بن مرة ، فهو فى مَنَـعة من أبيه شيخ شيبان وأخوته وأبناء أخوته ، وكلهم من فرسان بكر الذين لا يسلمونه ولا يتخلون عنه . ولـكنه كان يحاذر فى لقائه خيفة أن يراه أحد من أتباع وائل فيَشِى به إليه فيوقع به وقعة لا رحمة فيها ، وهو ضعيف ليس من ورائه من يعتز به . ولهذا كان لا يجتمع به إلا خلسا فى ظلمة الليل فى أمن من الأنظار . فإذا ألم به سـاعة من نهار لم يبق معه إلا إذا اطمأن على أن العيون لا تراهما معا . فإذا رأى أحداً قريباً منهما ترك صاحبه وذهب فى طريق غير طريقه .

ولمـا مضت هذه الأيام بغير حدث جديد ، حسب الناس أن

الأمر قد انتهى إلى نهايته ، وأن جساسا قَـنِـع بعزلته وعدل عن محاولة ما لا يستطيعه ، واطمأنت تغلب على رئيسها وبطلها ، واطمأنت بكر على أمنها وسلامتها ، ونسى الجميع الحادث الذى مر ، إلا أن تكون فكاهة يتفكهون بها ، ويجعلونها موضع سمرهم والتندر فى مجالسهم .

غير أن جليلة كانت دائمة الترقب والحذر ؛ فقد كانت تعرف أخاها وما كان يملأ قلبه من الغيظ الذى ظهر لها مما سمعته من قوله الحانق كلما رأته ، فكاس لا تزال تنتظر الغد وما يأتى به ، وتحس فى قرارة نفسها أنه إنما كان ينتظر الفرصة السانحة والغِـرّة الملائمة .

فكانت تجلس كل ليلة فى خشوع قبل نومها ، تناجى مناة وأوالا وتدعوهما ليحفظا لها زوجها العزيز .

وخرج وائل فى صباح يوم كعادته . وكان يقصد ذلك اليوم أن يتنزه عن الحى ، ويذهب إلى روضته ، وأمر بعض عبيده أن يتبعوه إليها ليعدوا له فيها طعاماً وخمراً .

وذهب إلى مرعى الخيل فركب فرسه الرباب ، ودعا كلبه عسافا ليرافقه ، وسار وحده سيراً هينا وقلبه ممتلئ بنشوة الصباح ، والنسيم البارد يبعث فى جسمه نشاطاً وفى نفسه خفة وسروراً . وهزه الشباب وتملكه الطرب إلى الحياة ، فأخذ يغنى بملء صدره ،

وبدت له الدنيا تفيض بالسعادة والجمال . ولمح أثناء سيره شخصاً جاثماً عند ثنية من ثنايا الوادى ؛ فلما وقع بصر الشخص عليه أسرع ذاهباً عن طريقه ، فتبينه فإذا هو عمرو بن الحرث الفتى الضئيل الذى كان يراه أحياناً يجالس عبيده فى مراعى الخيول ؛ فلم يكترث به ولم يحفل بوقوفه عند الثنية ، ولا بإسراعه هرباً عند مقدمه ، فلم يكن عجيبا أن يسرع مثله ليبعد عن الطريق التى يسلكها سيد ربيعة .

وذهب إلى الروضة فوقف عند مدخلها حيناً يتأمل جمال منظرها ، ويملأ عينيه من اخضرار أشجارها ونخيلها ، ونضرة أعشابها وزهورها ، وقد عقد الندى قلائد منثورة على أديم الأرض الزبرجدى ، وانتظمت حباته فى أسلاك نسج العنكبوت ، فبدت كأنها درر تتلألأ فى شعاع الشمس المشرقة . وفيما هو واقف بفرسه سمع كلبه ينبح نباحا يخالطه انزعاج ، ثم سمع من خلفه وقع حوافر فرسين يقتربان منه ، فتكبر أن ينظر وراءه ، لعلمه أن الراكبين إذا فطنا إلى وجوده أسرعا مبتعدين عن حماه ، وبقى واقفا ينظر أمامه ويتملى بحسن روضته . ولكن وقع الحوافر لم يبعد ولم يقف . بل أسرع وتقدم فى تجاهه ، حتى صار على قيد خطوات منه ، وعند ذلك سمع صوتاً يناديه من ورائه : « يا كليب الرمح وراءك ! » .

فعرف أنه صوت جساس . ولكنه لم يلتفت إليه ، وقال فى

لهجة ساخرة : « إذا صدقت فأقبل من أمامى » .

وسار على رِسْله فوق ظهر الرباب .

وما كاد كليب ينتهى من كلامه حتى أحس طعنة شديدة فى ظهره ، فارتمى عن فرسه ، ووقع على الأرض يتشحط فى دمائه . ورنّت فى أذنيه صيحات عدوه الوحشية ، ونزل جساس مسرعاً عن فرسه واقترب منه مكشراً كابن آوى إذا وجد جيفة .

فنظر إليه وائل نظرة تمثل فيها معنى الاحتقار والحنق ، واختلط فيها شعور الغيظ بالعجز والضعف ، وهمّ أن يقوم إليه فلم يقو على النهوض ، ففحص الأرض بقدمه وتقلب فى دمائه ، وما هى إلا لحظة حتى لحقه دوار النزيف ، واعترته غشية الموت .

وأقبل عليه جساس ينزع الرمح من ظهره وهو يخضخضه فى قسوة ويقول : « ذق الموت أيها الطاغية » .

وفهق وائل فَهَقات ألم ثم غُشِىَ عليه . وكان يفيق من غشيته إفاقة قصيرة ، فيحاول أن يتكلم فلا يستطيع ، إلا تمتمة خافتة لا تسمع ألفاظها ، ثم اعتراه عطش شديد فقال وهو لا يدرى من يخاطب : « أغثنى بشربة ماء » .

ولكن جساساً نظر إليه ، ثم ضحك ضحكة مخيفة وقال فى صرخة جشاء : « لا ابتل لك ريق أيها الطاغية » ! ووقف يتأمل نزعه فى سرور .

وكان عمرو بن الحارث فى تلك الأثناء واقفا وراء جساس وهو يرتعد ، وقد علته صفرة تشبه صفرة الموت ، فلما سكن وائل أشار إليه جساس أن يتقدم فأتى إليه متردداً ، فطلب منه أن يساعده على تغطية القتيل بالحجارة حتى لا تأكله السباع .

ولما أتما وضع الأحجار عليه ركبا عائدين نحو مضارب الخيام ، ولكن عمرو بن الحارث لم يجرؤ على أن يواجه قومه بخبر الجريمة ، فركض فرسه لا يلوى على شىء حتى دخل بيته ، فقبع فيه وهو يتفصَّد عرقا ويهذى هذيان المحموم ، وركب جساس فرسه وركض نحو خيمة أبيه مُرة ليحمل إليه النبأ المتشئوم ، ولكنه لم يملك نفسه فى ركوبه فبدت ساقاه عاريتين وهو لا ينتبه إليهما مما اعتراه من الذهول .

كان الشيخ مُرة جالساً فى فناء بيته مع بعض بنيه وحَفَدَته وبعض إخوته وأبناء عمومته ، فرأى جساسا يُقبل على فرسه راكضا وهو عارى الركبتين ، فالتفت إلى من حوله وقال فى فزع : « ما رأيت جساسا يركب كما أراه اليوم » .

ثم صاح بابنه وقد صار على مسمع منه : « ما بك ياجساس ؟ »

فقال جساس فى صرخة مفزِّعة : « لقد طعنته طعنة يجتمع لها بنو وائل غداً رقَّصاً » .

فقال مرة وقد قام مذعوراً : « ومن قتلت ويلك ؟ » .

فقال جساس فى وحشية : « قتلت كليبا ! » .

ثم رفع رمحه فوق رأسه وجعل يلوح به فى الفضاء ، وقال فى ضحكة جنونية : « وأدركت ثأر البسوس » .

فصاح أبوه وهو يرفع يده كأنه يريد أن يضرب :

— أكليب فى ثأر سراب ؟

فقال جساس وهو يلوح برمحه فوق رأسه :

— أنا ابن مرة . أنا جساس — لست ممن يُخفر جواره .

فاتجه إليه الشيخ وأحذ حفنة من الرمل فرماه بها فى وجهه وقال صارخاً : « ويل لك من مشئوم منكود ! ماذا جلبت على قومك من الهلاك ؟ إذهب عنى فلست من أهلى . إذهب عنى فلقد سللت نفسى من جريرتك ! » .

فرفع جساس رمحه وهزه ، وجعل يرقص فى سرجه كأنه يتغنى وهو يقول : « فرع الشيخ من حوف الثأر ! » .

ثم نزل عن فرسه واقترب من أبيه قائلا : « دعنى أيها الشيخ وحدى . لست أريد حمايتك ، فقد عرفت أنك لا تجرؤ على الدفاع عنى » .

فانتفض الشيخ فى غضب ، ونظر نحو ابنه المخبول لحظة وهو حائر ، واستغلق عليه التفكير والقول فلم يجب بكلمة ، بل وقف مشدوها ينظر إلى من حوله فى اضطراب، وقد وقع رداؤه عن

كتفيه ، وسقطت عصاه من يده المرتعدة ، وصاح بعد حين بصوته المختنق :

— أين همام ؟

وكان أبناؤه وحَـفَدته قد هبوا جميعا ، فوقفوا حوله فى حَـيرة ودهشة ، وتقدموا نحوه يرفع بعضهم الرداء ليغطى به كتفيه ، ويمد آخر يده بالعصا إليه وهم سكوت من الجزع والحزن .

فصاح بهم الشيخ فى حنق :

— أين همام ؟ أهو اليوم فى لهوه ؟ أين هو ؟ إذهبوا إليه فليجىء !

كان فى ثورة نفسه يتحرك فى اضطراب ، ويتردد متجها إلى جهة ثم عائداً إلى أخرى . ثم وقع نظره على شيخ كان جالسا فى جواره ، فرآه جالسا لا يتحرك فى مكانه ، وينظر نحوه فى دهشة ، فمد مُرّة إليه يديه كأنه يستنجد به فى حيرته ، فقام إليه الرجل متباطئا ، ثم قبض على ذراعه وانتحى معه جانبا . فلما صار الرجلان بحيث لا يسمع أحد حديثهما قال مرة — وهو لا يكاد يبين — : « ماذا ترى يا أبا عامر ؟ » .

فقال أبو عامر فى هدوء : « أترى تقدر على إعادة كليب ؟ أيعود الأموات إلى الحياة ؟ » .

فنظر مرة إليه مبهوتا ولم ينطق بلفظ ، فاستمر الشيخ فى

كلامه هادئاً : «لقد كان ما كان ، ولم يبق إلا النظر فى أمر القوم . وأنت إذا تماديت فى لوم جساس خذلت بنى بكر وبنى شيبان إذا احتجت إلى نصرتهم » .

فهدأ مرة قليلا وقال : « وماذا ترى يا أباعامر فداؤك نفسى ؟ »

قال أبو عامر : « دع اللوم والجزع واظهر للقوم شدة ؛ فإن ذلك أدعى أن يقتصدوا فى طلب الثأر ، وذَمِّر بنى بكر وحرضهم على القيام لنصرة جساس » .

وسكن الرجل قليلا ، ثم نظر إلى الشيخ مرة وقال له هامساً : « يا أبا همام . أما إنها لطعنة حر أبى ! أما تذكر كيف كان كليب يسومنا الذل ونحن لا نستطيع أن نرفع نحوه عيوننا » .

فانتفض مرة ، ومد يده مسرعاً فأمسك بذراع أبى عامر ، وتلفت حوله حذراً ، ثم قال هامساً : « أو ترضى يا أبا عامر ؟ » .

فقال الرجل :

« أما وحق الآلهة جميعاً ، لقد وددت أن طعنة جساس قد مدت بها رماح بكر كلها . كان كليب طاغية يحمى المراعى ويمنع المـاء أن نرده ، ويبالغ فى طغيانه ، فيجعل كلبه يأمر سادتنا بنباحه ، فلا يستطيع أحد منهم أن يرد عليه لفظاً » .

فتنفس الشيخ مرة ، وقال ولا يزال صوته هامساً :

« ولـكنها الحرب يا أبا عامر ! هى الحرب الطاحنة والبلاء العظيم » .

فقال أبو عامر :

« أراك سكنت إلى الدعة يا أبا همام ! وماذا تخشى من الحرب وأنت فارس بكر العتيق . هل تسلس ربيعة القياد لمن يكره حر الجلاد ؟ » .

فسكت الشيخ لحظة يفكر فيما يقوله صاحبه ، واستمر أبو عامر فقال :

— «وما فضل تغلب على بكر حتى يستأثروا دون بنى عمهم بهذا الأمر ؟ أقنعت يا مرة بأن تكون صهر العزيز ؟ أقنعت يا شيخ بكر بما يلقيه إليك بنو أبيك من فضلات عزهم ؟ »

فصر الشيخ على أضراسه ، ثم سحب صاحبه من ذراعه وعاد نحو ولده وكان أهدأ عند ذلك قولا .

ولما صار عند الجمع المنتظر ، قال يخاطب ولده : « نحن للحرب يا ولدى ! أنت منا ولن تسلمك بكر أبدا . لست أسلمك حتى أقتل دونك مع قومى أو نشعلها ناراً حامية على قوم الطاغية الظالم » .

فلما سمع بنو شيبان قول شيخهم مرة اهتزوا وعادت إليهم نفوسهم ، وتصايحوا : « يا لبكر ! قتل الطاغية ! » .

واندفع جساس عند ذلك إلى أبيه فعانقه وقبل يديه وقال فى خضوع وصوته يكاد يختنق من التأثر : «لاعدمتك ناصراً يا أبى ! »

ثم أخذ رمحه وهزه فوق رأسه وجعل يرقص رقصة التحدى والاعتداد بالنفس ، ويتغنى بأناشــيد بدعو فيها قومه إلى حرب الطغاة .

وصاح مرة فى قومه وقد تبدلت لهجته ، فقال : « يا بنى شيبان ، سأضرب بأطراف العوالى ، وأبى الذل عن قومى وشرفى ؛ فما كانت بكرٌ ليخفر جوارها أو تستكين للطاعية » .

فقال أبو عامر : « يا بنى شيبان ، من يكون للحرب إدا لم تــكونوا فرسانها ؟ » .

فتصاعدت صيحة من القوم : « سنسل السيوف وندفع ظلم تغلب . لقد هلك الطاغية . سندفع البغى ، ونحمى قومنا من عار الخضوع والذل . »

وأسرع الجميع إلى بيوتهم ينقلون النبأ الخطير ، واختلى مرة وأبو عامر ساعة ، ثم بعثا الرسل إلى قومهم بالاستعداد للرحيل . فقد علما أنه لم يكن لشيبان بعد مُقام فى جوار تغلب ، وأنه لا بد لهم من انتظار الغد وما يأتى به من الأحداث .

٧

كان همام بن مرة مختليا بصدبقه المهلهل عَـدِىّ بن ربيعة كعادتهما كل يوم يشربان الخمر عند ربوتهما المختارة فى عزلة من قومهما . وجلسا يلعبان النرد وهما يرشفان الشراب ، وانتهى الدست ، وكان المهلهل غالباً ، فمد يده إلى كأسه مْرتاحاً ورفعها فنظر فيها إلى الخمر المصفاة وجعل بشمها فى شغف ، ثم رفعها إلى فمه وهو يضحك ضحكة ماجنة ، وقال ناطراً إلى صاحبه :

— أبشرى يا أرامل ربيعة ! إنها جرور من خير مال همام ابن مرة .

فرفع همام كأسه لىشرب منها ، وقال وهو يجيب بضحكة مثل ضحكة صاحبه :

— ما كانت أموال همام بن مرة لتباح إلا للأرامل !

ثم وضع الـكأس وقال للمهلهل :

— دست آخر إذا شئت أن تطعم سائر أرامل تغلب .

وكان المهلهل قد شرب كأسه فى جَـرْعة ، فقال وهو يمص شفتيه :

— مهلا يا عدىّ ! فإن حظى اليوم غالب .

ووضع الـكأس ، وأخذ النرد فى يده فضرب به ولعب لعبته فإذا بالنرد يواتيه بلعبة بارعة ، فصاح صيحة فرح ولعب اللعبة وهو يقول :

— لئن طال بنا المجلس لم أَدَعْ لك مالا يا همام .

فقال همام وهو يضحك :

— أرى الحظ يواتيك يا عدىّ منذ اليوم .

ثم رمى النرد فخرج له أقل وجوهه غناء . فضحك الصاحبان معاً ، ورفعا كأسيهما فرشفا منهما رشفة ، ثم لعب همام لعبته وقال :

— أرى السعد لك خدناً ياعدى . يواتيك فى لعبك كما يواتيك فى حبك . هل رضيت عنك سلمى ؟

فرمى المهلهل النرد وهو يقول :

— ما أبالى إذا هى لم ترض .

ونظر الصديقان إلى النرد فإذا به لعبة بارعة . فضحكا معا ولعب المهلهل لعبته وهو يقول :

— أما قلت لك إننى لن أدع لك مالا . أبشرى يا أرامل بكر وتغلب بجزور أخرى من أموال همام !

واستمر الصاحبان يلعبان ويتسامران ويشربان حتى مالت الشمس للمغيب . وكان المهلهل فى كل مرة غالباً حتى قمر صاحبه بعشر جزر من ماله ينحرها لأرامل بكرٍ وتغلب . ثم جلسا

يتناشدان آخر ما قيل فى قبائل العرب من شعر ، وجعل المهلهل ينشد صاحبه بعض ما قاله من الغزل فى صويحباتهما اللاتى كن حيناً يشاركنهما مجالس المجون ، وحيناً يغاضبنهما ولا يحضرن مجلسهما . وفيما كان المهلهل ينشد بعض شعره رأى صاحبه يلتفت إلى ناحية من الوادى وينظر إليها فى اهتمام . فقال ضاحكا :

— أراك فاتراً عن سماع الشعر ياهمام . كأن شعرى لايعجبك .

فلم يجبه همام إذ كان منصرفاً ينظر إلى أسفل الوادى ؛ فالتفت المهلهل ومد عنقه ليرى أين ينظر صاحبه ، وقال له فى مجون :

— هل أقبلت سلمى ؟

ولكن هماماً لم يجبه ، بل قام من مجلسه وسار هابطاً إلى الوادى الذى تحتهما ، فاتبعه المهلهل ببصره فرأى جارية تقود فرساً وتشير إليه تستعجله أن يذهب إليها .

فقعد المهلهل ينتظر عودته وملأ لنفسه كأساً وأخذ يتغنى وحده بشعره حتى رجع صاحبه وهو ممتقع اللون مضطرب ، يكاد يتعثر فى خطاه ، فقال له المهلهل ضاحكا :

— ماذا حملت إليك الجارية ؟ أهو موعد جديد ؟

فقال همام متردداً وهو يحاول الابتسام :

— هات لى كأساً .

وكان الصديقان قد تعاهدا على الصدق لا ينكر أحدهما من

صاحبه حديثاً ؛ فقال له المهلهل معاتباً :

— أراك تكتم عنى سرك يا همام .

فقال همام مرتبكا :

— أما إنه لقول لا أصدقه .

فقال المهلهل ضاحكا :

— لعلها تنبئك بغدر سلمى ؟

فقال همام فى وجوم :

— لا أبالى اليوم سلمى !

وكان المهلهل سادراً فى الخلاعة لا ينصرف عن أحاديث الخمر والنساء ، فقال :

— إذن فهى مى أو أميمة .

فقال همام متكلفاً الابتسام :

— أى زير أنت يا عدى !

فضحك المهلهل من قوله . فما كان أحب إليه أن يلقب بهذا اللفظ الماجن الذى سماه به أخوه الحبيب وائل بن ربيعة . لقد سماه زير النساء ، فتلقف الناس عنه ذلك الاسم ، فما كانوا يذكرون المهلهل إلا به ، ولكن المهلهل كان يحب أن يسمع اللقب الذى اختاره له الشقيق العزيز على ما به من تعنيف ولوم . وماذا عليه أن يسميه الناس زيراً ؟ فهذا أعذر له أن يسدر فى

غوايته ، وأحرى بأن يحمل الناس على تركه لسانه وخمره ، ولا بأس عليه منه إذا كان هو يفوز باللذات . فقال لصاحبه :

— دع ذكر هذا ، فأنت أولى بهذا الاسم مني . ولكن ما قالت تلك الجارية ؟

فلم يكن لهمام بد من أن يصدق صاحبه ، وقد ألح عليه بالسؤال ، فقال جاداً :

— لقد زعمت الجارية أن جساساً قتل كليباً .

فضحك المهلهل ضحكة عالية ، وقال وهو يملأ كأسين :

— تقول جساس قتل كليباً ؟ أما إنها لفكاهة من جارية لكاع . إن جساساً لا يقوى على أن ينظر إلى طهر وائل بن ربيعة . خذ هذه الكأس .

فتناول همام الكأس وشرب منها قليلا ، ونظر إلى صديقه وهو يرفع كأسه ويتجرعها ، وشعر كأن حملا ثقيلا ينزاح عن عاتقه عندما رأى المهلهل لا يصدق النبأ . وقال له مداعباً :

— أترى لو صدقت الجارية . أكنت ثائراً بأخيك ؟

فتجهم وجه المهلهل وقال متلعثما :

— وحق مناة ليس له من كفء إلا أنت .

فقال همام : ..

— أتحب أن تراني قتيلا يا عدي ؟

فتقبضت عضلات وجه المهلهل ، وبرق عينيه ، وهز رأسه في عنف وقال :

— والله ما أدرى أيكما أحب إلى يا همام . دع هذا الحديث فلست أحبه .

فتنفس همام في حزن ، ونظر إلى صاحبه وقد مالت رأسه واختلت حركته ، حتى صار لا يستوى من السكر ، وكان الليل قد أقبل ، وهبط على الوادى الظلام ، فنظر همام حوله وقال :

— أحس التعب يا عدى ، والليلة مظلمة .

فقام المهلهل وهو يترنح ، وأسنده صاحبه من ذراعه حتى ركب فرسه عائداً إلى منزله ، ومضى همام إلى الفرس التي أتت بها الجارية ، وسار مع صاحبه حتى ثنية الوادى التي تفترق عندها الطريق إلى منزليهما ، فودعه ضاحكا ، وأسرع إلى مضارب خيامه ، فرآها خالية وقد ارتحل القوم عنها كما قالت له الجارية . فهمز جواده وانطلق في أثر قومه وهو يلتفت بين حين وحين إلى ورائه في الظلام لعله يرى ضوء نار يملأ به عينيه من الديار العزيزة التي شهدت لذاته ووثبات لهوه مع صديقه الخليل عدى ابن ربيعة .

ولما بلغ المهلهل منازله طالعته ضجة من قبلها . فدار به رأسه المخمور وخيل إليه أن الضباب يغطى ناظريه ، ثم رأى أمامه النساء

يندبن ويبكين ويشققن ملابسهن . فعجب وحار كأنه فى حلم مزعج ونزل عن فرسه يسألهن عما أصابهن فى لسان معوج ، فكان لا يسمع إلا صياحاً أو سباباً . ثم رأى الرجال يضطربون فى الظلام ويتنادون فى فزع ، وقد أقبل بعضهم على سلاحه يكسره ، وبعضهم على خيله يعقرها ، فكان ذلك كله عجباً من أمرهم لم يفهم منه شيئاً إلا أن يكون الخبل قد أصابهم . ومرت فى خياله الفاتر صورة كليب ، وتذكر قول همام إذ قال له حديث الجارية ؛ وساءل نفسه : أيكون جساس قد قتل كليباً ؟ أليس هذا الذى يراه بعض أحلام الخمر ووساوسها ؟

واقترب من الناس يريد أن يسألهم ، فجعلوا ينظرون إليه فى ازدراء ثم يصرفون عنه وجوههم ، وسمع قائلا منهم يقول :

— لم يبق لنا إلا هذا السكير الماجن ، الذى لا يكاد يفيق ، إنه آت هذه الساعة من مجلس مجونه .

ومضى فى سيره حتى بلغ ساحة منازله ، فصاح بمن هناك وقد عاد إليه بعض وعيه :

— ما بالكم تكسرون السلاح ؟

فأسرعت إليه امرأته وصاحت به وهى حانقة :

— قتلوا كليباً وأنت منصرف إلى شرابك ولهوك !

فنظر إليها المهلهل فى غضب ، وقد وخزته كلماتها وثار الدم

فى رأسه حتى ذهب عنه أثر الخمر ، وقال لامرأته :

— ما ذا تقولين ؟ لقد كذب من يقولها .

ورفع رأسه ، واعتدل فى وقفته ، وتغير لون وجهه ، فصاح به القوم فى غضب :

— قُتِل المنيع العزيز ، فكن حيث شئت . كن حيث شئت فما نراك تُبالى .

فاربدّ وجه المهلهل ، ونظر إلى قومه غاضباً ، واكتسب مظهره عزماً لم يعهده فيه أحد ، وقال كأنه يُفيق من حلم : «قتل كليب ! »

ثم ذهب إلى جانب من الفناء ، فجلس على صخرة ووضع ذقنه على يده ، وجعل ينظر إلى القوم حيناً ، وهم فى شغل عنه بما هم فيه من اضطراب وجزع ، يكسرون السيوف والرماح ، ويتصايحون لكى يبعثوا إلى الخيل ينحرونها . فاشتعل قلب المهلهل غضباً ، ودبت فيه ثورة عجيبة أحس نفسه تجيش بها ، فوثب من مقعده ، وصاح صيحة ترددت أصداؤها فى الليل المظلم :

— أيها الحمقى ! ماذا تفعلون ؟

فنظر إليه القوم فى عجب ، ورأوه يتجه إليهم ، فوقفوا ينظرون ماذا يريد منهم ذلك السكير ؛ فلما جاء المهلهل إليهم وقف رافعاً رأسه وعيناه تلمعان ، وضوء النيران الملتهبة تتلاعب على وجهه المربد ، وقال لهم بصوت أجش :

— إنكم تسبوننى منذ الليلة ، وما أنتم إلا كبعض النساء . أراكم تكسرون السلاح وتقتلون الخيل ، وأنتم الآن أحوج الناس إليها .

فنظر إليه الرجال لحظة لا يصدقون آذانهم إذ يسمعون . أهذا المهلهل الذى يكلمهم ؟ واستمر المهلهل فقال :

— دعوا الحزن للنساء ، يشققن الثياب ويصبغن الوجوه ، ويصرخن ويبكين . أما أنتم ، فاتخذوا السيوف ، وأعدوا الخيل ، وقوموا الرماح . دونكم الحرب . فاستعدوا لحرب ضروس .

ثم ترك الناس وقوفاً ، وذهب عنهم صامتاً مطرقاً ، يعلوه شىء من الخزى . حتى إذا ما صار فى بيته ارتمى فى ركن وجعل يبكى وحده ، ويتمثل ما هو فاعل إذا أصبح الصباح .

واجتمع نساء تغلب فى تلك الليلة للنواح فى بيت سيد ربيعة ؛ وعلا صراخهن حتى ترددت أصداؤه فى جوانب الوديان .

وكان فى وسطهن امرأة طويلة القامة ، سمراء اللون ، هيفاء دعجاء . قد شقت ثيابها ، ونشرت شعرها الأسود الطويل ، وعفّرت وجهها الجميل ، وكانت تختلج وتهتز من شدة البكاء . وكان النساء يشرن إليها ويتهامسن بين صرخاتهن :

— هذه جليلة ابنة مرة سبب البلاء . إنما هو أخوها جساس وقومها الجناة .

وهاجت إحداهن ، فصاحت فى عويلها وهى تنظر نحوها :

— ما مُقام الأعداء بين ظهرانينا ؟

فنظرت جليلة بعينيها المحمرتين ، وقالت بين شهقاتها :

— إنما أنا المفجوعة المكلومة .

فصاحت بها أخرى فى مرارة :

— إنما أنت وقومك سبب البلية . أخرجى عنا أيتها البكرية .

ثم تعالى الصراخ والسباب من جوانب الفناء .

فقالت جليلة وهى تنشج بالبكاء :

— علم الله ما أقاسى وما ألاقى ! إنما المصاب مصابى .

فعلت الضجة مرة أخرى وانهالت عليها قذائف السباب :

— إنما أنت شامتة . إنما أنت عدوة . إبعدى عن منازلنا . لا بقيت بيننا .

فقامت جليلة غاضبة ، وقالت وهى لا تزال تختلج وتضطرب :

— كيف أبعد عن مناحة زوجى ؟ إننى صاحبته ، وأنا التى فجعت فيه . وهذا الجنين الذى فى أحشائى من دمائه . ولئن كان مصابكم واحداً فمصابى مضاعف : هذا زوجى قتل ، وهذا أخى مطلوب بدمه . فنواحكن مصانعة ومجاملة ، ونواحى تفجع وتوجع . بعض نفسى يبكى على بعض ، وبعض دمى يثور ببعض ، ولو شئت لسرت مع قومى ، ولكنى آثرت البقاء فى تغلب ، حنيناً إلى قوم

صاحبى ، حتى لا يولد هذا الجنين بين قومى فيكون فيهم غريباً عدواً .

فضج النساء ، وزاد اضطرابهن ، وجعلن يشتمن جليلة ويطردْنها ، وأقبل بعضهن نحوها يُرِدْن إخراجها دفعاً والإيقاع بها . فلم تستطع إلا أن تخرج ، ولا تكاد تنظر طريقها وقد حبس الحزن لسانها ، وأسرع عبدها فأعد لها مطية . وسار حتى ركبت فى طريقها ، وانطلقت تتبع قومها وهى تقول : « وا حر قلباه ! قتل الحبيب ، وقاتله أخى ! تعساً لمناة ، وويلاً لأوال » .

ثم جعلت تنشد ، والدمع يشرقها :

فِعْل جساس على وجدى به   قاطع ظهرى ومُدْنٍ أجلى
يا قتيلا قوض الدهر به   سقف بيتىّ جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته   وانثنى فى هدم بيتى الأول
خصّنى قتلُ كليب بلظى   من ورائى ولظى مستقبل
يشتفى المدرك بالثأر وفى   دَرَكى ثأرىَ ثُكل المُثكل

وكاد الحزن يذهب عنها لبها ، وهى سائرة وحدها تطلب آثار قوم أبيها ، ولا يصاحبها فى ظلام الليل إلا عبدها يقود ناقتها .

وأصبح الصباح عليها وقد أدركت قومها ، وسارت معهم يجدون السير يطلبون أرض اليمن ليمتنعوا بها ، ويعتصموا من قتال قوم كليب .

٨

اجتمع بنو تغلب فى ناديهم ، وقد أقبل الليل وأخذ البرد يشتد ويقسو . وكانت النيران الموقدة فى وسط الفضاء ترسل ضوءها على الوجوه ، وتتلاعب فوقها فى خفوت ، وتمتزج بالظلال فلا تبدو الملامح فيها إلا غامضة مبهمة . وكانت ظلال الأشخاص تتراقص على جوانب الكثبان المحيطة بالفضاء ، كأنها أشباح متحركة من الجان ، تخلع على المجتمع رهبة شاملة .

وكان القوم فى اجتماعهم قلقين لا يستقر بهم حديث ، ولا ينظمهم سمر ؛ بل كانوا متفرقين فى حلقات متباعدة ، وقد مالت كل جماعة إلى ناحية تتناجى فى كثير من الحنق ، وتهب فيهم بين حين وآخر عاصفة من الهياج ، فيعلو ضجيجهم ويحتدم جدلهم ثم يعودون بعد حين إلى التناجى القلق الخافت ، والمحاورة المضطربة .

كانوا فى ذلك الاجتماع ينتظرون عودة رسلهم الذين ذهبوا وراء بنى عمهم بنى بكر ليفاوضوهم فى تدارك الأمر ومداواة الجرح الذى أصابهم بقتل كليب ، قبل أن يسيروا إليهم بطلب الثأر . وكان يظهر من حديثهم المضطرب أنهم لم يكونوا متفقين على رأى ،

ولا متحدين فى غاية ؛ فكانت فيهم طائفة غير راضية بالانتظار ، تنكر إرسال الوفد للمفاوضة مع قتلة زعيمهم ، لا تفتأ تضج مطالبة بالنهوض إلى طلب الثأر ، وتنادى بالحرب لا ترضى فيها بهواده ولا مسالمة ؛ على حين كانت طائفة أخرى تشفق من الحرب وويلاتها ، وتنادى بالأناة والصبر ، مؤملة أن ينزل بنو عمهم البكريون على حكم العدل والإنصاف ، فيجيبوا إلى ترضية شريفة تطمئن لها نفوسهم ، وتقنع بها كرامتهم .

وكانت هذه الطائفة تظهر فى جدالها الحانق أنها لا تريد الحرب أنفة من زعامة ذلك السكير الماجن ، عدىّ بن ربيعة (المهلهل) ، ذلك الذى عرفته تغلب كلها ، لا يقطع يومه إلا على نوم من أثر الخمر والنساء . فهل كان مثل هذا الخليع ليخلف كليباً على زعامتهم ؟ وهل كانوا ليلقوا قيادهم إلى ذلك الشاب المعجَب بجماله ، التيَّاه فى نعيمه ، الذى لا يحسن إلا المناغاة والتغنى ، والذى جعل وَكْده المنادمة والغزل ؟ هل كانوا ليأتمنوا مثل ذلك الشاب الداعر على عز تغلب ومجدها ؟

وكان فى صدر النادى فارس تغلب أبو نويرة ، جلس محتبياً بسيفه ، وتكاد لحيته السوداء تلمس ركبتيه وهو مطرق لا يلتفت إلى من كانوا حوله ، وضوء النار الملتهبة تقع على وجهه فتظهر فيه أخاديده وندوبه سوداء تكاد تملأ صفحته ؛ وكان يسمع ما يتقاذف

به الشبان والشيوخ من عبارات المجادلة ، ولـكنه كان يتغطرش فلا يدخل فى شىء من أحاديثهم الحانقة .

كان أبو نويرة يفكر عند ذلك حريناً فيما تؤول إليه أمور تغلب إذا هى تعجلت الحرب ، فإنه لم يكن إلا أبا عشيرة بين العشائر ، لا يستطيع أن يقود عشيرته إلى الحرب وحدها ، وقد علم أن تغلب قد انفرط عقدها فلا تستطيع أن تجتمع على واحد من فرسانها ، ولم يجد حوله فى شبان تغلب أو كهولها ، من يستطيع أن يلم الشمل حوله ويقود قومه جميعاً إلى النصر .

كانت تغلب قد استنامت إلى بطولة أميرها وسيدها وائل بن ربيعة الذى فجعوا فيه منذ يوم ، وكان وائل مستأثراً بالزعامة والقيادة والبطولة ، فلم يدعْ لغيره مجالا إلى جواره . كانت تغلب كلها رعية له تطيع إذا أمر ، وتسير إذا سار ، وتتجه حيثما أشار ، فلم ينبغ فيهم من تعود الأمر والقيادة ، ولم يعتد الناس أن يلتفوا حول أحد من رؤسائهم ، إذ كان وائل لا يدع لأحد منهم رياسة ولا سلطاناً ولا جاهاً . كان يستأثر بالسلطان كله فى غيرة ، فلا يرى أحداً من فرسان قومه يرفع رأسه إلى زعامة حتى يبطش به ويذله وينزع منه كل مطمع فيها . لم يكن فى عشيرة وائل نفسها من هو جدير بأن يقود الناس فى تلك الأزمة الشديدة ، فلم يكن له ولد ، ولم يكن فى أخوته من يستطيع أن يسد مسده ؛ فهذا هو

أخوه عدى المهلهل ، لا يقطع أيامه ولياليه إلا على مواعيد فى مجالس اللهو والشراب . وماذا يستطيع مثل المهلهل الماجن أن يصنع إذا الحرب شمرت عن ساقها ، وفتحت أفواه الموت للرجال ؟

كان أبو نويرة يفكر حزيناً فى مصير تغلب . وما كان له أن يسارع إلى حرب لم يكن قومه مستعدين لها . فإن الحرب إذا وقعت لا بد أن تكشف عن تغلب سر العز الزائف الذى أسبله عليها بطلها الفذ وائل بن ربيعة . كان الحزن يأخذ على أبى نويرة أسباب التفكير وهو جالس فى صدر النادى ينتظر عودة الرسل الذين ذهبوا لمفاوضة بنى بكر فى مصالحة بنى عمهم وإرضائهم من قتل سيدهم .

وكان كلما سمع تقريع الشبان وسبابهم وثورة مجادلتهم تحرك فى موضعه متألماً ، ولكنه كان يحاذر أن ينطق بحرف خوف أن تنفجر حفيظتهم فيجرفهم المهلهل معه إلى الحرب فى رعونة ، وهم لا يدركون ما يدركه ، ولا يعرفون ما يعرفه . لقد عركته الحوادث فى حياته وحلب الدهر أشطره ، وجرب من الأمور ما لم يجرب هؤلاء الأغرار — المهلهل الماجن وشبانه الذين معه — هؤلاء الأولى يتحرقون إلى الحرب ، حتى إذا ما أوقدوا نيرانها وسارعوا إليها ، كانوا أسرع الناس إلى الجزع منها ، وإلقاء اللوم على زعمائهم الذين لم يتبصروا ولم يتخذوا لها عدتها

ولكنه لم يقدر على أن يبقى على صمته طويلا ، فإن الجدال بين الشبان والشيوخ قد حمى وأوشك أن يصير إلى نضال وعراك . ولم يطق المهلهل البقاء فى النادى ، فخرج إلى الفضاء ينتظر عودة الرسل فى قلق ؛ وتبعه بعض أصحابه من صغار القوم وهم يسخطون ويسخرون . ثم نهض شاب يريد أن يتبع المهلهل فقال فى تهكم :

— ماذا تنتظرون هنا أيها القوم ؟ إن الوفد الذى بعثناه لكى يركع عند قدمى شيبان سائلا أن يمنوا علينا بالصلح ، لم يعد إلينا منذ ثلاث . فلنذهب إلى بيوتنا . فما نحن أهل للحروب ؟

فتحرك أبو نويرة قلقاً ، وحاول أن يصرف نفسه عن الجواب ولكن قام بعده شبان يريدون الخروج وراء المهلهل ، وأوشك الجمع أن ينفض من حول أبى نويرة .

فأشار إليهم بيده أن يتريثوا ، ثم قام يتكلم فقال :

— لقد علمتم يا معشر تغلب أننى أبو نويرة ، أول فرسانكم عند اللقاء ، وآخرهم عند اقتسام الفىء . وعلمتم أننى كنت عند وائل بن ربيعة فى أكرم مكان ، فما أصيب فيه بعد المهلهل وقومه أحد مثل مصابى فيه . ولو كان أحد من تغلب يتحرق قلبه على طلب الثأر ، لكنت أنا ذلك الرجل قبل سواى . ولكن الحرب تحطم وتفتك ، إذا كشرت عن أنيابها وشمرت عن ساقها ، ولا يستطيعها إلا من عركها وصبر على حد نابها ؛ وإنى أشفق عليكم

منها إذا أنتم سارعتم إليها وراء من قد عرفتم أمره . فإن وائلا لم يخلف من ورائه من أهله من يقوم مقامه ، والحرب لا يقوى عليها ذلك السادر فى لهوه ، الذى لا يكاد يُفيق من شرابه .

فعلت من جوانب الوادى همهمة تعالت حتى تجاوبت الأصوات فيها بالجدال العنيف والسباب ، وهمّ بعضهم إلى بعض بالسيوف .

فصاح أبو نويره غاضباً :

— على رسلكم أيها الفتيان ! فما هذه إلا طلائع الخذلان .

فقام شاب من أقصى النادى يهز رمحه فى يده وصاح :

— لقد حملتنا على الدّنية ، ورضيت لقومك الذِّلة . هذه بكر ترفع ذيلها وتمتنع . وهل كان جديراً بنا أن نأخذهم بغير السيف ؟ ما هذه الثرثرة التى لا تريدنا إلا دُلاًّ . أما أننا سنصير فى العرب مُثلة وأُحدوثة ؛ إذ وترنا قوم فى عزيزنا فبعثنا وراءهم نسألهم أن يمنوا علينا بالسلام . أى عار جلبتم على قومكم يا شيوخ تغلب !

وعلا الضجيج مرة أخرى ، وترايدت ألفاظ السباب .

فقام أبو نويرة وأشار بيده مرة أُخرى حتى سكت الناس ، فقال فى صوت هادئ تشبه نغمته أن تكون اعتذاراً :

— لقد كان حقا علينا أن نعذِر إلى بنى عمنا قبل أن نبدأ حربهم . ولقد عرفتم أن العرب لا ينصرون الظالم ، ولا يؤازرون من أعتدى . لقد قتل جساس كليباً ، وذهب إلى الناس يزعم أنه

ثار عليه لطغيانه وقتله لظلمه . وذهب الناس عنه بين مصدق ومكذب . فإذا نحن عجلنا إلى الحرب بادئ البدء لم نذهب إلا بكلمة مصدوعة ، ورأى متفرق . فإذا كنا قد آثرنا أن نرسل إليهم رسلنا ، فما هذا إلا لكى نعذر إليهم ، فنكون بهذا قد قمنا بما يجب علينا من رعاية الحرمة ، والحق الذى يوجبه الرحم بيننا وبين بنى عمنا . فإذا هم أبوا أن ينزلوا على حكم الحق ويُرضونا بالقصاص من الكفء ، سرنا إليهم وكنا عند ذلك يداً واحدة . وسنرى قبائل العرب عند ذلك من ورائنا تشد أزرنا ، وتقوى عضدنا . ولعل قبائل بكر لا تُجمِع على الظلم ، فيقعد بعضها عن حربنا ، أو يعجزون عنا فيسلمون لنا المجرم الذى وترنا . فإذا لاقتنا شببان ظالمة بعد هذا ، كان الحق يخذلهم ، ولم تجد من ورائها من العرب من ينصرهم .

ولما انتهى من مقاله ، ارتفعت الأنظار إليه شاخصة لا تطرف ، كأنها تحلق فيما وراء الأفق البعيد تستشف ماوراءه . وبقى أبو نويرة صامتاً يدير بصره فى القوم لحظة ، ثم همّ أن يعود إلى القول ليتم ما بدأه من الأثر ، فإذا بصوت ناقة تحن وترغو فى أنين متقطع عميق ، تحمله الريح فى الليل الساكن من بعيد . فسكت أبو نويرة وأصغى بأذنه إلى الصوت ، وسكن الجمع فى مجالسه ينصت ، فقد عرفوا أن تلك ناقة الحرث بن حى أحد الرسل

الموفدين إلى بكر ، وكانت الناقه والدة فى الحى تركت فصيلها ، فما كادت تعود وتقترب من موضعه وتشم رائحته حتى ضجت له بالحنين .

ومضى بعد ذلك حين ، خرج فيه جماعة يتلقوْن الوفد ، وبقى آخرون ينتظرون ؛ ثم أقبل الرسل وأناخوا إبلهم وأتوا إلى النادى يحيط بهم جماعة الشبان ومعهم المهلهل مشرق الوجه متهللا .

ولما سلم القوم واطمأنوا فى مجالسهم حول النار بين الكثبان الناعمة ، قام أبو نويرة ببطء وهدوء ، وقال يخاطب كبير الوفد الحرث بن حى :

— إذا صدق الظن ، وأصاب الحس ، فقد عدتم من بكر بسيوف مصلتة ، ورماح مشرعة .

فساد الصمت لحظة ، ثم رفع الحرث رأسه وتكلم بصوته العميق وهو مطرق فقال :

— سيعرفون غداً أنهم ظلموا وما عدلوا ، وستقيم تغلب حقها على حد السيف ، وتنال منهم بالقسر ما أبوْا بالسلام .

فتحرك الشبان فى مجالسهم قلقين ، وهموا بالوثوب غاضبين .
فقال أبو نويرة يخاطب الحرث :

— ألم تنصف بنى عمك يا أبا حى ؟

فقال الحرث فى تردد :

— لقد أنصفنا بنى عمنا فما أنصفوا . طلبنا إليهم أن يسلموا إلينا جساساً نقتله فى كليب فنحقن بذلك بيننا الدماء ، فقال أبوه مُرّة : « إنه ركب فرسه وضرب فى الأرض ، فهم لايدرون أى البلاد انطوت عليه » . فطلبنا إليهم أن يسلموا لنا أخاه هماماً فهو كفء كريم نقتله بقتيلنا . فقال مُرة ساخراً : « إن هماماً أبو عشيرة ، وعم عشيرة ، وأخو عشيرة ، كلهم بطل فارس ، ولن يسلموه لو أردت أن أدفعه إليكم لتقتلوه بجريرة غيره » . فقلنا للشيخ : إذن فقد رضينا بك أنت لنكون مطفئاً لثأرنا . فقال الشيخ فى عناد : « والله لا أسلم نفسى قبل أن أجول فى الحرب جولة وأموت مناضلا » . ثم قال فى كبرياء وغلظة : « ولكنى أعرض عليكم غير هذا ، أعطيكم ألف ناقة سود المقل لتكون دية كريمة لقتيلكم ! » .

وسكت الحرث لحظة ، وقد بدا على وجهه الغيظ ، وانفجر الجلوس فى غضبة واحدة ، فلم يستقر أحد منهم جالساً ، ولم يبق فيهم أحد صامتاً .

وصاح المهلهل وقد كان إلى ذلك الوقت ساكناً :

« واكليباه ! يقتل وهو العزيز ، فى جزور من الإبل . ثم لا يبذل فى دمه الغالى سوى الجزر . واكليباه ! هل كنت لتباع بالنياق حتى يشرب القوم ثمنك لبناً ؟ » .

وعلت على أثر قوله ضجة تصم الآذان . وتصايح الشبان من جوانب النادى : « ويل لبكر ! الحرب والفناء لبكر ! » .

ثم نظروا إلى المهلهل وقد علا وجهه بريق الانتصار ، فقام ليتكلم ، واتجهت إليه الأنظار ، فقال :

« لقد علمتم أن كليباً كان لكم عزاً ومجداً ، به سدنا ، وبسيفه انتصرنا وعلت كلمتنا . ولقد أكل الحسد قلب أعدائكم فلم يجدوا لكم رزءاً أشد عليكم من فقد كليب ، ولم يعرفوا جرحاً أوجع فيكم من طعنة فؤاده . فهم إذا أصابوه لم يقصدوا إلا مجدكم ، ولم يطمعوا من وراء مقتله إلا أن يسودوكم ، فوحق مناه وآمال ، وحق السيف والرمح ، وحق المصاب الفاجع ، والظلم الموجع ، لنأخذن بثأر كليب حتى لا يبقى فى بكر موضع ثأر ، ولنأخذن بحقه كاملا ، حتى لا يبقى عضو منه أو جارحة لا نثأر لها ، بل لنأخذن بثأر الشِّسْع الذى كان يربط به نعله ، نقتل به عزيزاً منهم ، وسَريًّا من سَراتهم » .

وكان الغضب قد بلغ منه عند ذلك مبلغ التوقد ، فاحمرّ وجهه الجميل وتقبض ، ولمعت عيناه لمعاناً وحشيا ، وتصلبت أعضاؤه وهو يشير بيديه مهدداً . وسرت عدوى غضبه إلى الحاضرين ، فلاحت على وجوههم علائم الثورة ، واكتست جباههم بظلال الدماء ونظروا إليه وقد ملأهم العجب أن يكون هذا الثائر المتوثب عدىّ

ابن ربيعة (المهلهل) ، صاحب الخمر ، المفتون بالنساء ، الذى لا يعرف إلا التغنى والتغزل فى قصيد الشعر .

ولم يشعر القوم وهم فى هذه الثورة بقدوم جماعة أقبلت عند ذلك ووقفت عند طرف الجمع لتسمع آخر مقالة المهلهل ، وتشهد الغضبة الشاملة التى عمت نادى تغلب فى تلك الليلة .

ولما خمدت حدة الثورة تقدم الوافدون نحو مهلهل ومدوا إليه أيديهم بالتحية ، وقال كل منهم له كلمة تعزية ، ثم ذهبوا نحو أبى نويرة فرحب بهم وفسح لهم المجالس فى صدر المكان ، وعاد الهدوء بعد قليل إلا همسات بين الجالسين يعرِّف بعضهم بعضا بهؤلاء الوافدين .

وبعد قليل وقف أبو نويرة فأشار بيده إلى الجمع أنه يريد الكلام ، ثم قال كلمة رحب فيها بالمقبلين ، وشكر لهم سعيهم بالعزاء . ولما انتهى من ذلك صمت لحظة ثم نظر إلى قومه وأشار إلى كهل من الضيوف وقال : « بطل بنى بكر الحٰرث بن عُبَاد » .

فتطلعت الأنظار إلى الرجل الذى أشار إليه أبو نويرة ، وكان رجلا طويلا قد وخط الشيب لحيته ، ولكن قامته المعتدلة ، وبناء جسمه المتين ، واتزان حركاته وهدوءها كانت تنم عن أنه زعيم اعتاد أن يقود وأن يغامر ، وأن يأمر وأن يطاع . وبعد لحظة من

السكون قال أبو نويرة يخاطب ابن عباد : « إذا شئت يا أبا ضبعة »

فوقف الحارث متكئاً على رمحه ، وتكلم وفى صوته رنة من الحزن فقال : « يا أبناء العم من تغلب ! لقد علمتم ما كان مما لا حيلة فيه . وكان فقد كليب مصاباً جليلا ، عَمَّنا معاشر بنى بكر كما عمكم ، وأصاب أفئدتنا كما أصاب أفئدتكم . وكنا نرجو أن ينصف إخواننا بنو شيبان من أنفسهم ، فيحقنوا الدماء ويخمدوا نيران حرب يصيب فيها الرجل أخاه ، وتقطع فيها يمين المرء يسراه . ولكن بنى شيبان لم ينصفوا ولم يعدلوا ، ولجُّوا فى العناد وأصروا على البغى ، فلا حاجة بنا إلى نُصرتهم ولا رغبة فينا إلى مؤازرتهم ، فنحن بعد اليوم بمعزل ، وإن كنا لا نملك أن نحاربهم معكم ، فلسنا بناصريهم عليكم ؛ ولهذا عولت على أن أكسر سهامى وأنزع الوتر عن قوسى ، وأسير بأهلى ومن أطاعنى لأبعد عن هذه الفتنة ، ولعل إخواننا يجدون بعد الغَىّ هدى » .

ولما انتهى من مقالته قعد إلى جوار أبى نويرة بين همهمة خافتة تنم عن ارتياح وشكران .

وتعاقب بعد ذلك الخطباء من الوافدين ، بعضهم من قبائل بكر الأخرى : بنى عجل وحنيفة ويشكر ، تعلن الانفضاض عن إخوانهم بنى شيبان أو الانتصار لتغلب ومؤازرتها ، وبعضهم من فروع النمر بن قاسط ، جد بكر وتغلب الأعلى ، وقد جاءوا لنصرة بنى أبيهم التغلبيين على بنى أبيهم البكريين الذين تمادوا فى البغى والظلم .

وهكذا صارت قبائل ربيعة كلها يدا واحدة تطالب بدم بطلها . وأصبحت شيبان فى عزلة ، تستعد للمقاومة وحدها ، والدفاع عن جريمة ولدها الثائر الباغى جساس بن مُرَّة .

ولما هم المجتمعون بالانصراف بعد ذلك وقف عدى بن ربيعة (المهلهل) فى سكون ، وأشار بيده إليهم قائلا :

— على رِسْلكم يا بنى أبى !

فوقف القوم ينظرون إليه ، وكانوا عند ذلك أكثر إقبالا ، وأسلس أسماعاً . فقال :

« لقد علمتم ما كنت عليه من ضلال وعمى ، وانصراف إلى اللهو والمجون . لا أنكر ذلك ، ولا حاجة بى إلى نكرانه . ولست أدافع عن نفسى ولا أبرئها ، فقد كنت سادراً فى ظل كليب ، كفانى بشجاعته مؤونة الجد ، وصرفنى جاهه إلى النعيم ، ولكن قتله سلبنى حمايته ، وأفقدنى جاهه ، وعلىّ أن أقطع سائر أيامى فى قضاء دينه والوفاء له . وقد آليت منذ اليوم على نفسى ، وعقدت بينكم موثقاً ، أن الخمر على حرام لا أذوقها ، والنساء على حمى لا أقربه ، وأن الطيب لن يمس جلدى ، والماء لا يبل جسدى ، حتى أثأر لكليب ثأراً تطيب له نفوسكم ... ... » . ثم تردد قليلا وقال بعد صمت قصير : « وتطيب نفسى » .

ثم سار مطرقاً ، وسار القوم فى إثره واجمين ، وقد تمثلت على وجوههم عزيمة الجد ، وطلب الثأر .

٩

كانت حرباً عنيفة ليس فيها بقيا ولا هوادة . كانت تغلب تتعقب شيبان أينما تحل ، لا تترك لها مُتنفساً من الراحة ؛ فإذا انتهت من وقعة وانحازت شيبان إلى منزل بعيد لتداوى جراحها وتصلح سلاحها وتجم خيولها ، فاجأها بنو عمها قبل أن تطمئن فى مُقامها الجديد ، فيوقعون فيها وقعة جديدة أشد عليها وأنكأ لجراحها . وكان المهلهل لا يفتأ يذكر أخاه فى ليله ونهاره ويبكيه فى شعره ، فلا يكاد قومه يعودون من القتال حتى يذمرهم ويحرضهم فيثبون معه إلى حيث يمضى بهم ، وقد أسلموه قيادهم واتبعوه ، لا يجادلونه فى رأى ، ولا يعصونه فى أمر ؛ فقد وجدوا فيه قائدهم الذى يسبقهم إلى الصدر ، ويفرق لهم صفوف العدو ؛ يضرب حانقاً ، ويندفع فى غمار الجموع يقتل فيها ويمزقها . واشتعلت مع تمادى الحروب أحقادهم ، وامتلأت بالجرأة قلوبهم ؛ وألفوا النضال كأنهم يجدون كل المتعة فى مناظر دمائه ، وضجيج هيجائه .

وتزحزحت شيبان عن منازل اليمامة حتى بلغت أطراف القفر المجدب ، تلتمس فيه النجاة من العدو الملح ؛ وكانت ترجو أن يخشع المهلهل عنها ، إذ نال منها ما نال فى وقعاته العنيفة ، وحسبت

أنه يستوحش من تلك الفلوات ، فلجأت إليها على ما تتجشم فيها من قسوة الحياة .

ولكنها لم تلبث أن سمعت أن عدوها لا يزال يرحف إليها ، ويخترق فى سبيله الفدافد الوعرة التى ظنوها تحميهم وراءها .

وكان يوماً شديد الحر من أيام الصيف عند ما سمع مُرة شيخ بنى شيبان بأن المهلهل قادم فى غزوة جديدة مغيراً بقومه تغلب وحلفائه من قبائل بكر والنمر بن قاسط ، الذين تألبوا عليهم واجتمعوا على مطالبتهم بثأر كليب . وكان بنو شيبان عند ذلك نازلين بآخر منزل حلوا فيه بعد هرائمهم المتكررة ؛ فقد ضربوا خيامهم عند عين واردات فى أطراف اليمامة ، بعد أن هجروا رياض نجد ووديانها الخصيبة منذ غلبهم عليها بنو عمهم فى الوقائع الماضية : وقائع النهى وعنيزة والذنائب ، وقنعوا فى وادى واردات بأقل المراعى كلأً ، وأشح العيون ماء ، وأشد البلاد حراً وإقفاراً ، ولكنهم كانوا لا يزالون يأبون النزول على حكم عدوهم ، وإن كان عددهم قد صار إلى القلة ، واضمحل أمرهم وضاعت أموالهم فى حروب تلك السنين الطويلة .

وقع نبأ الغارة الجديدة على الشيخ مُرة وقع الصاعقة ، لأنه كان يعرف قلة عدد فرسان قومه وكثرة المتألبين عليهم من شبان القبائل الأخرى ؛ وزاد فى شدة الأمر عليه أن سنوات الحرب

كانت سنوات جدب ذهبت بأكثر الأموال ، وأن السماء لم تجد في الشتاء المنصرم بما يحيي المراعى ويسمن البهم ويدرّ الألبان ؛ وجعل يقلب وجوه الراى فيما هو صانع فى تلك الغارة ؛ أيقف مرة أخرى لعدوه القوى ، أم يستعد للنزوح إلى فيافى الدهناء المخيفة ؟ وفيما هو فى ذلك الهم الشاغل أقبل عليه ولده جساس مسرعاً ، فرفع بصره إليه صامتاً وهو يعبث بلحيته البيضاء بأصابعه النحيلة فى شىء من الاضطراب ؛ فوقف جساس لحظة ينظر نحوه وقد امتلأ قلبه شفقة على ذلك الشيخ المتهدم ، الذى ما زال يحمل هموم قومه تلك السنين الطويلة المليئة بالهرائم والمحن ؛ ولم يستطع أن يبعد عن فكره أنه السبب الأول فى إثارة تلك الفتن وإنزال تلك الكوارث بقومه ؛ ثم اقترب من الشيخ وجلس القرفصاء إلى جواره ، وقال بصوت خافت فيه رنة الرحمة : « أبى ! » .

فلم يُرد الشيخ أن يظهر شيئاً مما كان فى نفسه من الهم ، فأسرع مجيباً فى هدوء : « لعلك قد علمت بنبأ تحرك القوم نحونا يا جساس » .

فقال جساس بصوت متردد : « هذا ما جئت أحدثك فيه » .

ومضت لحظة قصيرة عليهما فى صمت ، ثم قال جساس :

« لقد رأيت يا أبى ما جلبت على قومى من المصائب ، وقد بدا لى اليوم عظم جرمى عليكم وشناعة مضرّتى لكم ؛ كنت

شاباً نزقاً لم أعرف مغبّـة عملى وعاقبة تهوّرى ، حتى مرت بنا هذه الأحداث وتطاولت علينا مدة الحرب هذه السنين ؛ فعلمت الحق بعد أن تفلّـت الأمر من الأيدى ، ورأيت أننى كنت ، كما وصفتنى يوم قتل كليب ، جانياً مشئوماً منـكوداً ؛ علمت أننى لم أحرز لقومى عِزّة بقتل كليب ، بل أذهبت عنهم عزتهم ، وفرقت كلمتهم وأفشيت فيهم الثـكل والويل » .

فلم يجب الشيخ على قوله بكلمة ، بل ظل مطرقاً وهو يعبث بلحيته ؛ وساد الصمت حيناً آخر ثم استمر جساس قائلا : « وقد عزمت يا أبى على أن أحمل جريرتى دونكم ، وأبذل نفسى فى فدائكم لعلى أنقع غُلة ذلك الصديان الذى لا يرتوى من كل ما أراق من دمائنا » .

فرفع الشيخ رأسه مسرعاً وقد بغته ذلك الرأى الجديد وقال مندفعاً : « ماذا تقول يا جساس ؟ » .

فاستمر جساس يتكلم فى هدوء : « عزمت على أن أذهب إلى المهلهل وأسلم نفسى إليه ، لعله يقنع بى دونـكم » .

فقال الشيخ وفى صوته غضبة ثائرة : « أبعد إذ كان ما كان ؟ أبعد أن قتل من ولدى وقومى مَن قتل فى سبيل الحفاظ والـكرامة تسلم نفسك إليه ، وتلحق بنا المعرة التى كرهناها ، وتنزل بنـا الصغار الذى أبيناه ؟ وما لذة الحياة بعد من ذهبوا ؟ وهل يحل

بنا بعد اليوم إلا مثل ما حل بقومنا بالأمس ؟ لقد أبينا أن نسلمك لهم ونحن أعزة ، فلن نسلمك لهم ولم تبق لنا عرة نحرص عليها . لس بيننا وبين المهلهل إلا الفناء » .

وكانت العزيمة الصارمة التى فى صوته لا تدع مجالا للمراجعة ، فنظر جساس إلى وجهه المجعد لحظة ، وحفق قلبه حزناً لما رأى عليه من أثر الهم الذى يضمره فى قلبه ولا يبوح به ؛ وأحس أنه لا يزال الابن الصغير الضعيف أمام ذلك الأب القوى فى ضعفه ، الفتى فى شيخوخته ، ولم يستطع إلا أن يغض عينه حتى لا تقع فى عين أبيه الصارم . وأطرق إلى جواره صامتاً .

ومضت لحظة أخرى فى صمت ، ثم استأنف جساس القول ، وكان فى هذه المرة أكثر تردداً واضطراباً . قال : « إذا كنت يا أبى قد عزمت على المضى فى هذه الحرب فلا أرى لك أن تبقى هاهنا » .

فقال الشيخ فى هدوء وقد نظر إليه حائراً : « وإلى أين نذهب إذا لم نقم هاهنا ؟ لقد اضطررنا إلى هذا المقام اضطراراً ، ولم يبق لنا بعد هذا الموطن إلا الفيافى القاطعة . ولن يكون لنا فيها إلا العذاب ثم الهلاك . وإذا كان ولا بد من الموت فليكن على ظهور الخيل والسيوف فى أيدينا » .

فقال جساس وقد زاد اضطراباً وتردداً : « لقد بدا لى رأى

إن أحببت أن تسمعه » .

فقال الشيخ ولا يزال فاتراً : « قل ما بدا لك يا ولدى » .

قال جساس بصوت خافت : « نحمل نساءنا وأطفالنا ونسلل فى وديان اليمامة حتى نبلغ منازل تغلب من وراء ظهورهم . فنتقوى بما عندهم من أموال ، وإذا رجعوا إلينا بعد حين ليحموا حرمهم ، قابلناهم وقد استرحنا وهم فى جهد السفر الطويل » .

فتحرك الشيخ فى حركة ضجر فى مجلسه وقال فى لهجة قاسية : « نذهب إلى منازل تغلب ؟ وماذا نجد هناك سوى النساء والصبية ، أو كل ضعيف من الشيوخ والمرضى ؟ أو تريد إذن أن تعيد علينا معرّة فوق معرة ؟ ألا تذكر يوم قَتَل (ابن غنم) المرأة التغلبية ؟ ماذا جر علينا قتل المرأة غير العار الذى لا يزال لاحقاً بابن غنم وأهله وقومه ؟ دع عنك هذا ، فإنك إنما تنصر عدوك بمثل هذا البغى . إننا لو فعلنا ذلك الذى تشير به لما زاد علينا العرب إلا حفيظة ، وحسبنا ما جلبنا على أنفسنا من عداوة العرب » .

ولم يطل الحديث بعد ذلك بين الأب وابنه ، فقد أقبل همّام ابن مرة مسرعاً على فرسه وهو يلوّح بشملته فى الهواء ، وفى مظهره ما ينم عن الفزع من أمر خطير . فأسرع الشيخ ليقف على قدميه وهو يترنّح من ضعف الشيخوخة ، وساعده جساس

حتى وقف ، وسار بخطى متعثرة نحو ولده المقبل ، ينظر نحوه فى لهفة ، وجساس إلى جواره يُسنده من تحت إبطه .

حتى إذا ما اقترب منه همام صاح به فى لهفة : « هل من جديد ؟ » .

فقال همام مسرعاً :

— القوم وراء هذه الكثبان .

وأشار إلى الربى الصفراء التى عند الأفق . ثم قال وهو يهمز فرسه :

— هلمّ يا جساس . إملأ لنفسك قربة ماء والْحق بى . فإنى ذاهب لأنذر الناس .

ولم ينتظر همام جواباً ، بل لف لِثامه فوق أنفه وفمه ، ليتقى به الهواء اللافح والحر المتقد ، ثم وثب نفرسه نحو منازل قومه .

فصاح الشيخ وهو ينظر فى أثره : « ولدى ! » .

وسكت كأنه قد غَصَّ بريقه ، ووقف ينظر نحو التلال البعيدة كأنه فى حلم .

ووثب جساس إلى فرسه ، فما هى إلا لحظة حتى كان فى أثر أخيه . وغيبهما الغبار الثائر عن عينى الشيخ .

بعد ساعة كان فرسان بنى شيبان يسيرون نحو الكثبان ليلاقوا العدو المغير ، وسيوفهم تبرق فى أيديهم ، وأسنة رماحهم

تلمع فى ضوء الشمس الساطعة كأنها شرر منبعث من لهيب ، والرياح الحارة تثير الرمال ، وتلفح الوجوه ، وتكاد تخنق الأنفاس . ونظر مُرة إليهم وهم سائرون ، فرآهم صفوفاً ضئيلة فوق خيول ضامرة ، يسرعون إلى القتال وهم يعلمون أن العدو قد أقبل نحوهم فى عدده وعدته ، يريد أن يستأصل بقيتهم بعد أن أفنى منهم الألوف فى وقعة بعد وقعة . واسودّت الدنيا فى عينى الشيخ عندما تذكر أنه لم يبق له من قومه إلا هذه الحفنة القليلة ، ولم يبق بيت من بيوت شيبان إلا وقد فُجع فى زهرة شبابه وصفوة فرسانه ، فرفع يده إلى عينه ومسح دمعة ترقرقت فيها ، وقال كأنه يحدث نفسه : « ألا ما أقلها من بقية ! لقد عشت حتى أرى ! فيا ليتنى... »

ثم توقف عن إتمام قوله كأنه لم يشأ أن يدع نفسه تتمادى فى هذه الخواطر اليائسة فى مثل تلك الساعة الخطيرة . وهز نفسه ووقف ينظر بلهفة إلى الفضاء الفسيح حيث يترجح ميزان القضاء .

سارت الكتيبة الصغيرة حتى صارت فى منبسط الأرض ؛ فوقفت تنظم صفوفها ، وترتب خطتها . فاختار همام جماعة من الفرسان ليكونوا معه طليعة ، واختار جساس جماعة أخرى ليكونوا لهم رِدْءاً ، وأُرسلت طائفة ثالثة مع عمرو بن السدوس إلى ثنيَّة وادى واردات لتكمن للعدو ، وتخرج عليه إذا وجدت الفرصة سانحة .

واتفق قادة شيبان على أن يتقدم همام إلى العدو فيحاربه ويبارر أبطاله ؛ حتى إذا التحم الجيشان واستحرّ القتال تظاهر همام بالهزيمة ، فيقف جساس بمن معه فى وجه العدو المتقدم ، حتى يتمكن همام ومن معه من العودة إلى المنبسط الفسيح الذى وراء الكثبان ، ليستريحوا ويشربوا من قِرَب ماء يضعونها عند سفوح الكثبان ، ثم يتظاهر جساس بالانهزام متياسراً ، ويتقهقر بجماعته إلى ناحية الكمين ؛ فإذا ما أوغل العدو وراءهم فى السهل وقصد إلى نحو منازل شيبان لسبي من فيها من نساء وأطفال ، وغَنْم ما بها من مال وأثاث ، خرج عليه كمين ابن السدوس فجأة وعاد همام وجساس يَكرّان عليه بجماعتهما ؛ فيأخذونه وهو آمن مشتت ، مشتغل بجمع الأسلاب ، ويوقعون به هزيمة محققة يستردون بها شرفهم ، وينتقمون لما سبق من مصابهم .

ولما تم تدبير هذه الخطة تقدم همام وقد حمل قربة من الماء جعلها على عاتق فرسه ، وقال لأصحابه : « لا ييأس أحدكم أن أمامه اليوم قتال مجهد فى صحراء جرداء ، فليحمل كل منكم قربته ، فإذا صرنا عند الكثبان جعلها فى موضع يعرفه ، فإذا أجهده القتال قصدها فارتوى ثم عاد إلى قتاله نشيطاً ، فاليوم لا يموت إلا العطاش » .

ثم ركب فرسه وسار نحو الكثبان ، وأصحابه وراءه يسوّون

سلاحهم ودروعهم ، وقد امتلأت قلوبهم عزيمة وأنفة . وكانت تغلب لا تزال وراء الكثبان تنتظر أمر المهلهل بالمسير ، وهى تملأ الفضاء خيلا ورجالا . وكانوا لا يظنون أن بنى شيبان يجرؤون على المسير إليهم ، فقد كانوا يعلمون أنهم صاروا فى قلة من العدد ، وجهد من طول الحرب ، يقيمون فى أرض قاحلة ، ويقاسون مرارة العيش فى واد قفر ، وكان المهلهل يرى أن تلك الغاره لا محالة تأتى عليهم ، وتقضى على من بقى منهم . ولهذا لم يتعجل فى زحفه بل كان يؤثر المُقام فى مكانه حتى يَفتُر الحر ، وتميل الشمس ، فيسطو عليهم سطوة لا يلبثون معها أن يتفرقوا ، فيقتل فيهم ما شاء حتى إذا أقبل الليل كان قد طواهم فى هزيمة قاضية .

كان المهلهل لا يزال فى خيمته يستظل حتى تميل الشمس عن كبد السماء . فإذا بكتيبة شيبان تطلع من وراء الكثبان وتهبط على فرسانه كما تحل العاصفة فجأة ، فاضطرب الجمع المحتشد ، وتواثبوا إلى خيولهم وتصايحوا ؛ يدعو بعضهم بعضاً ، وينادى قريبهم البعيد . فوجد همام فى ذلك الاضطراب فرصة فانتهزها ، وأهوى بجماعته القليلة على من لقيه من أدنى القوم ، فقتل فيهم مقتلة عظيمة ، حتى هم سَرعان بنى تغلب بالانهزام ، ودفع المنهزم أخاه من ورائه ، وكادت المفاجأة تنتهى فى تغلب إلى نكبة كارثة .

وعند ذلك أقبل المهلهل من أقصى الميدان فى سلاح تام ودرع ضافية ، واندفع إلى عدوه كأنه سهم انطلق من قوسه ، لا يتردد ولا يميل ، وهو يضرب بالسيف تارة ويطعُن بالرمح أخرى ، فلا يصمد إلى فارس حتى يجدّله ، ولا يجالد بطلا حتى يصرعه ؛ كأن صخرة تهوى حيث هوى ، وهو كلما ضرب فارساً صاح بصوت يُدوِّى : « وا كليباه ! » . فعرفت شيبان الصجة ، وعرفت أنه مهلهل بن ربيعة ، الذى آلى على نفسه ألا يزال دهره على أهبته ، لا ينزع حوشه ولا يصع درعه ولا بيصنه .

ووجد بنو تغلب عند ذلك متنفَّساً من الوقت للاستعداد ، فركبوا خيولهم سِراعاً واجتمعوا من أطراف الفضاء خِفافا ، وعاد الذى كاد ينهزم ، واطمأن الذى كاد ينخلع ، وأحاطوا بكتيبة همام حتى كادت لا تجد ثلمة للفرار .

ولكن بنى شيبان ، وإن كانوا قلائل فى العدد ، كانوا من فرسان اعتادوا مقارعة الأبطال ، وطالت بهم منازلة الشجعان ، فما زالوا يتلقون الضربات بالدروع ، ويتواثبون فوق خيولهم كالسَّعالَى من الجن ، حتى استطاعوا أن يخرجوا من حلْقة العدو ، وقد أوشكت أن تلتئم حولهم ، وأسرعوا فوق الكثبان منهزمين نحو الفضاء الفسيح الذى دونها . ولحقت بهم خيول تغلب غير مترددة ، وتدفقت وراءهم كأنها السيل ينحدر إلى بطن

الوادى . ولـكن المهلهل نقى حيث كان ، فما كان مثله ليتبع منهزماً فهو للقاء العدو المقبل ، وليس لاقتفاء المنهرم المدبر .

كان حساس عند ذلك رابضاً بمن معه وراء الـكثبان ، فلم رأى خيول تغلب تتدفق فوق الـكثبان ، أسرع إليهم فوقف فى سبيلهم ، فعطف المغيرون عليه وتركوا هماماً ومن معه يمضون فى سبيلهم .

وقاتل جساس فى جماعته قتال المستميت ، وكان الفضا الرحب أرفق بهم ، وأطلق لحركاتهم ، فـكانوا يفرون ثم يكرون ويحاورون عدوهم ثم يعودون إليه ، حتى حيل إلى بنى تغلب أنهم يلاقون حشداً خمساً وعدداً عديداً ، وزادت هيبة الفئة القليلة فى قلوبهم فترددوا فى لقائها ، وتحاموا بطشها وقتالها . وعلا صخب القتال وتجاوب الفضاء بأصوات الحديد ، فسمعها المهلهل وهو فى مكانه يستريح مما ناله من جهد القتال الأول ، فأسرع مبادراً فاعتلى الـكثيب وأشرف على الفضاء ، فرأى كتيبة جساس تطحن قومه فى قتالها العنيف ، فانحدر نحوها يصيح صيحته . فما سمعت تغلب الضجة حتى اشتدت عزائمها فحملت حملة شديدة . ورأى جساس أنه لن يستطيع الثبات أمام ذلك التيار الأتِىّ ، فانهزم بجماعته متياسراً نحو جانب وادى (واردات) ، وتبعهم مهلهل يصيح « واكليباه ! » .

سمع جساس الصيحة فعرف أن ذلك الفارس هو مهلهل المخيف وعلى الدم فى رأسه عندما تذكر من قتل من إخوته ومن قومه ، وكان العطش قد أجهده وطول القتال قد أجهضه ، ولكن الغيظ غلب عليه ، فأشار إلى فارسين قريبين منه أن ينحازا بجماعتهما إلى جانب الوادى ، وعاد هو نحو عدوه مُحنَقاً ، يطلب القتال الذى لا هوادة فيه .

وقف جساس وجهاً لوجه أمام عدوه الفاتك وناداه أن يُقبل عليه للنزال . فأقبل مهلهل نحوه كأنه يقذف بنفسه قذفاً ، ووقف فُرسان تغلب على مسافة منهما ليروا ما تنتهى إليه مبارزة القرينين .

قال جساس صائحاً صيحة وحشية : « إلىّ يا مهلهل ! أنا قاتل كليب ! أنا جساس بن مرة إن أردت ثأرك » .

وما سمع المهلهل اسم جساس حتى اندفع نحوه محنقاً وعض بريقه من شدة الغضب ، فلم يجب إلا بضربة كادت تشق البيضة عن رأس جساس وتنفذ إلى دماغه .

فترنّح جساس لشدة الضربة ، ولكن البيضة دفعتها عنه ، ثم تمالك نفسه بعد قليل وأهوى بسيفه نحو رأس خصمه فضربه ضربة أودع فيها ما فى قلبه من حقد وغضب ، فتحول المهلهل عنها سريعاً ، فوقعت الضربة على عنق الفرس فقدّته ، ووقع الفرس كأنه جلمود صخر .

ووثب المهلهل إلى الأرض حتى لا يقع تحت الفرس القتيل ، ورمى سيفه عند ذلك وقبض على رمحه الطويل وهزه فى يده حتى ارتاح إلى قبضته ، ثم سدده إلى قلب جساس وأسرع فقذفه به .

وأدهشت هذه الحركة جساساً فلم يستطع أن يأخذ رمحه فى يده ، ولم يقدر على أن يبلغ المهلهلَ بسيفه وهو بعيد عنه ، فلما رآه مسرعاً نحوه بالرمح البارق تحول عن فرسه إلى الأرض كالنمر الأرقط ، فلم تصب الضربة إلا جانب درعه ، ولكنها كانت ضربة غاضب محنق فزلزلته ، وكادت تلقيه صريعاً .

فى تلك اللحظة سمعت صيحة عالية من وراء مهلهل ، فالتفت فرسان تغلب إلى جهتها ، فإذا كمين ابن السدوس يهوى نحوهم من جانب الوادى يريد أخذهم من وراء ، وكان مهلهل على وشك أن يتبع ضربته بأخرى يقضى بها على خصمه ، فلما رأى الكمين مقبلا نحوه أسرع إلى فرس قتل فارسها ، فوثب عليها واتجه مسرعاً نحو العدو المقبل ، وهو يقول فى غيظ : « لهف نفسى على فوت جساس ! » .

وما هو إلا قليل حتى اصطدمت الكتيبة المقبلة بمهلهل ومن معه ، وقد أقبلت بعد راحة من القتال ، وكانت على قلة عددها ثقيلة الوطأة ، شديدة الضربة .

وعادت فى الوقت عينه جماعة همام بعد أن رَوِيت واستراحت

وعادت معها كتيبة جساس بعد أن تنفس .

والتحم عامة جيش شيبان بعامة جيش تغلب ، وعلا القتام وعم الاضطراب ، واختلط الجمعان وفشا فى الجانبين القتل ، وتعالى فيهما الضجيج ، وتردد النصر بينهما ، فتارة تنحاز تغلب إلى الكثبان ، وتارة تنحاز شيبان إلى جانب الوادى . وتفرق المتقاتلون ، فمنهزم يتبعه خصمه ، وراكض يلجأ إلى قومه ، ومتعب يلتمس صخرة يستريح عندها ، وظامئ يطلب شربة يرتوى بها ؛ ومالت الشمس إلى الغروب وميزان القتال لا يزال مترجحاً تارة يميل مع شيبان وأخرى يميل إلى تغلب . وفى أثناء ذلك الهرج الشامل علت صيحة من جانب الكثيب حملتها الرياح الثائرة مع رمالها ، وكان يمتزج فيها رنين الفرح الوحشى بجلجلة اضطراب وفزع : « قُتل همام بن مرة ! قتل سيد شيبان ! » .

وسمع المتقاتلون تلك الصيحة وهم لا يعرفون من أين أقبلت . فوقفوا فى مواضعهم حيناً يتلفتون فى دهشة . فهل هى بعض خدع الحروب ، يقذف بها أحد المتحاربين يقصد من ورائها قصداً ؟ أم هو فارس من فرسان تغلب أصاب قريناً من فرسان شيبان يحسبه سيد القوم فصاح تلك الصيحة وهو واهم قد اشتبه الأمر عليه ؟ أو هو رجل مدع من بنى تغلب يريد أن يباهى لحظة بأنه قد هدّ شيبان بمقتل سيدها لكى يتحدث الناس باسمه حيناً

فيرضى غروره حتى يظهر الحق بعد لأى ، فيكون قد أصاب من من جلال البطولة نصيبا مخلوسا ؟ أم قد فترت تغلب عن القتال وأعياها ثبات شيبان فصاح رجالها تلك الصيحة لكى يتستر وراءها المهلهل ويأمر رجاله أن يكفوا عن القتال ، مكتفين من ذلك اليوم بما نالهم من جراح دامية فى النضال العنيف ؟ ترددت كل هذه الخواطر فى قلوب مختلفة من شيبان وهم وقوف يتلفتون لعلهم يرون بطلهم بينهم فيعرفوه بدرعه المعلمة وفرسه الكميت النبيل . وأصاخوا بالأسماع لعلهم يسمعون صوتا يرتفع بتكذيب الصيحة الخبيثة فيطمئنوا على فارسهم الباسل ، ويعودوا الى مصادمة عدوهم فيزيلوه عن منازلهم بعد أن يوجعوه ضربا وقتلا . ولكنهم لم يسمعوا شيئا ، بل سمعوا الصيحة الأولى تتردد فى قسوة كأنها من صوت القضاء .

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : من يكون ذلك الصائح وهل هو ممن يعرفون من فرسان تغلب ؟

وعند ذلك ترددت الصيحة . وكانت فى هذه المرة صرخة رددتها صفوف العدو فى فرح : « قتل سيد شيبان ! » .

فلم تلبث صفوفهم أن تفرقت ، ولم يلبث أبطالهم أن تضعضعت عزائمهم . وتردد الفرسان لحظة ، ثم جرفهم الخوف الشامل ، وغلبهم الفزع المفاجئ ، فركضوا خيولهم يطلبون مضارب الخيام

لعلهم يقدرون على حماية الحُـرم ، فيستطيعوا النجاة بها من العدو المنتصر .

ونظرت تغلب إلى مهلهل ينتظرون ما يقول بعد سماع ذلك النبأ الخطير ، فقد أجهدهم القتال ، وما كان مقتل مثل همام بالنصر اليسير . فهل يسير بهم المهلهل بعد هذا النبأ حتى يجهز على بنى شيبان وهم فى دهشتهم واضطرابهم ؟ أم يأمرهم بإيقاف الحرب والاكتفاء من ذلك اليوم بقتل همام ؟

وقف المهلهل صامتا لحظة بعـد أن سمع الصيحة ، وكان لا يزال فى سلاحه ودروعه كقطعة من الحديد ، ورآه الفرسان يركز رمحه فى الركاب ويسند عليه رأسه ويتنفس نفسا عميقا ، ثم رأوه يرفع رأسه ويشير إليهم ويقول بصوت خافت : « ليهنكم النصر أيها الفرسان ، وحسبكم اليوم ما كان ! » .

فى تلك الليلة كان مهلهل يجول فى أنحاء الوادى يسير فى أثر ذلك الفتى الضئيل الذى قتل هماما ، حتى إذا بلغ الفتى الجانب الأدنى من الكثبان ، وقف وأشار إلى جسم ممدد على الأرض مائل إلى جنبه وقد اختلطت حوله الرمال بالدماء ، يمد يده نحو قربة ماء فى حفرة بين الرمال إلى جواره .

وقال الفتى فى لهجة المباهاة مشيراً إلى ثنيَّة وراء الكثيب :

« هناك انتظرته حتى اشتدَّ به العطش ، فأتى ليرتوى من

قرنته التى جعلها من جاب من الرمال . فلما جلس ليستريح ويشرب تغفلته وطعنته ، وكانت طعنة قاضية » .

فنظر مهلهل نظرة ساهمة إلى الجثة الممدودة وإلى وجهها المعفر وغاب حينا فى صمت وتفكير ، ثم اختلجت شفتاه قليلا ، ونظر إلى الفتى وقال :

— ألا تعرف فضل همام عليك يا ناشره ؟

وقال الفتى :

— نعم . لقد أخبرتنى أمى .

وكان ناشرة طفلا من تغلب ولدته امرأة فقيرة أرادت أن تئده بعد ولادته خوفا من الفقر ، خشية ألا تجد طعاما يكفيها مع ولدها فأحسن همام إليها وأعطاها ناقة ولوداً تطعم من لبنها ، وضم الطفل إليه ليعيش مع أهله . حتى شب ناشرة وعرف أنه تغلبى وذهب إلى قومه تغلب ليحارب معهم فى واقعة واردات .

وبعد صمت قصير أردف الفتى قائلا :

— لم أعرف فى شيبان أكرم منه لأقتله فى ثأر كليب .

فحول المهلهل نظره عن الفتى ، ثم نظر إلى القتيل الطريح كأنه يريد أن يملأ منه عينيه ، ثم قال والدموع تجرى من مآقيه :

« أىْ همام ! يا رب ليلة جمعتنا على المودّة ، ويا رب حديث تبادلناه على الصفاء . إن الثأر حبب إلىّ قتلك ، فأنت كفء

كريم ، ولكن قلبي ينازعني إليك يا صديق الشباب . وإن كبدى لحرى عليك يا حليل الصبا . ما قتل بعد كليب أعز على منك ، وما بقي بعدكما في الحيين من يعقد عليه الخير » .

ثم التفت إلى الشاب وقال في وجوم :

— اذهب يا ناشره وغيب وجهك عني .

ومضى نحو معسكر الحبش ، وترك الشاب مشدوها حائر الفؤاد .

في تلك الليلة نفسها كان مهلهل يسير في طليعة قومه عائدين إلى أرضهم ؛ فقد هزه قتل همام فلم يدع له رغبة في معاودة القتال .

١٠

مضت السنوات تتوالى ، والحرب لا تزال دائرة بين بنى العم المتناضلين إلى الفناء . وشب الصغير فى أثنائها وفنى الكبير ، ونبغ من الفرسان جيل فى إثر جيل ، ولكن المهلهل لم تهدأ ثائرته ولم يرتو بعد مما أسال من الدماء .

وتوالت المصائب على بنى شيبان بعد وقعة واردات ، كما توالت عليها قبل تلك الوقعة ؛ قتل همام بن مرة فى أثناء المعركة ، ثم قتل عمرو بن السدوس وقت الهزيمة ؛ ولم يلبث بنو شيبان إلا قليلا بعد ذلك حتى رُوِّعوا بمقتل رئيسهم الجديد والبقية الباقية من قادتهم وأبطالهم ، وآخر أبناء مرة ، جساس قاتل كليب . قتل جساس ولكن لم يقتل فى ميدان حرب ، ولم تطعنه يد غريبة ترصدت له ، بل أحاطت بمقتله روعة خلعت عليه لوناً قاتما من الفداحة ؛ فما كان قاتله سوى ابن أخته جليلة ، الهجرس بن كليب التغلبي .

كان الهجرس جنيناً عند مقتل أبيه ، ثم ولدته أمه وهى بين ظهرانى قومها بنى شيبان ، وشب فيهم ونما ، حتى أصبح فتى الفتيان وزين الشباب : فتى طويل القامة ، عريض المنكبين ، جميل

الوجه ، ولكنه كان مثل أبيه تخالط جماله قسوة من عبسة بين عينين تلمعان لمعان فِرِنْدِ السيف . وكان قليل الكلام ، فإذا تكلم عذب قوله فى السمع ، ووقع فى النفس ، عظيم المروءة ، يسرع إلى النجدة ، ولا يبالى المخاطر . فاتخذه حده مُرة أنيسا ، يفيض من بهجة شبابه على شيخوخته التى تطاولت به ، ويرفّه بمنظره عن الآلام التى توالت عليه ، مع تطاول السنين ، وجعله خاله جساس فى أهله ولدا ، وزوجه ابنته الجميلة سعاد ، وكأنه أراد بذلك أن يكفّر عن ماضى جريمته فى قتل أبيه . وكانوا يسمونه ابن جساس حتى لا تدخل الأحقاد إلى قلبه ، إذا عرف أنه ابن كليب .

ولكن مكان الهجرس فى شيبان غشينه عشاوة من الهموم ، منذ قتل همام بن مرة ؛ ذلك بأن ناشرة قاتل همام كان فتى تغلبيا ، أحسن همام إليه وعطف عليه ، بل حفظ حياته وليداً ، ورعاه طفلا وفتى ، حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجال لم يذكر إلا أنه من تغلب أعداء شيبان ، فقتل الرجل الذى أحسن إليه ، وغدر بمن كان حقه أكبر من حق الأبوة عليه .

فأخذ جماعة من الشبان يُذيعون المطاعن على الهجرس ، ويحرضون على إخراجه من بينهم حتى لا يصيبهم بمثل ما أصابهم به ناشرة . وسمع الهجرس ما يقولون فيه ، فداخلته الوساوس والشكوك ، واشتعلت فيه الكبرياء والأنفة ، وضاق صدره بالإقامة

فى قوم يقول قائلهم عنه : إنه ليس منهم . فما زال بأمه جليلة حتى أخبرته بقصة أبيه ، بعد أن هددها بأن يسير فى الأرض فلا تدرى أين يُقيم ، ولا أى البلاد تشتمل عليه .

وما علم قصته من أمه ، حتى أظلمت الدنيا فى عينيه ، ودارت به الأرض ، وخرّ صَعِقا ؛ ولم يفق من غشيته حتى كان قلبه قد استقر على أن ينتقم لأبيه ، وأن يبعد عن أعداء قومه ، ويلحق بأعمامه وذوى صلبه ؛ وجعل يدبر الحيل ، ويغتنم الفرص ، حتى حقق غرضه وأنفذ قصده ؛ فطعن خاله جساساً وأسرع هارباً إلى عمه المهلهل فى منازل تغلب .

فكان هذا الحدث تتمة الأحداث ، وقاصم الظهور ، ولم يبق لشيبان بعده من بأس ، فقد ذهب بذهاب جساس آخر من بقى من أبطالها ، وهيض جناحها ، وكُسرت شوكتها .

وبقى الشيخ مرة فى شيبان وحيدا ، قد أحنت ظهره السنون المتطاولة ، وعصفت به أحداثها المتعاقبة ، واجتمع عليهم مصاب الهزيمة ، وحزن فَقْد الأعزاء من أبنائه ومن فرسان شيبان الذين قصفتهم الحروب واحداً بعد واحد ، وتركتهم معفرين فى الوديان تنهشهم السباع وجوارح الطير . فتضعضعت نفسه ، وانطفأت فيه سورة الكبرياء التى كانت من قبل تدفعه وتجمح به . فلم يجد بداً من أن يسعى إلى مصالحة المهلهل ، والتذلل له حتى

يحفظ على قومه البقية الضئيلة التى بقيت لهم من ذرارى المستقبل. كان لا بد له من مصالحة المهلهل ، إذا شاء أن يبقى فى شيبان باق من هذه الصبية الصغيرة ، التى كان يراها تسعى حوله ، وليس فيهم إلا من فَقَد أباه ، وعمه وإخوته . فإن شيبان لم يبق فيها إلا هؤلاء الضعفاء ، بعد أن أفنى المهلهل فى وقائعه كل من استطاع الحربَ من كهول وشبان . ولم يجد الشيخ مرة من يلجأ إليه إلا الحرث بن عباد سيد بنى ثعلبة ، ذلك الذى اعتزل الحرب منذ أولها ولم يرض أن يشارك قومه البكريين فى ميادينها ، لأنه لم يرض عن ظلمهم وبغيهم فى قتل كليب ، وإصرارهم على الظلم إذ أبوا أن يرضوا بنى عمهم التغلبيين فى دمه الكريم . فاعتزل منذ ذلك الحين وترك البكريين يقاسون عاقبة ظلمهم ، ويلاقون صدمات المهلهل العنيفة وحدهم .

لجأ مرة إلى الحرث بن عباد وخضع له يستلين قلبه ، على تلك البقية الضعيفة من شيبان ، وطلب إليه أن يبعث إلى المهلهل فيرجوه أن يقنع بما أصاب من دماء بكر ، وأن يمنّ عليه بالصلح فقد صار هامة يومه أو غده ، فهو لا يحرص على شىء إلا أن يدع لهؤلاء الصبية من شيبان فرصة الحياة . فرق له الحرث ولم يشأ أن يزيد آلامه بلوم ، أو أن يذكره بما مضى من بغيه وكبريائه . وخف إلى معونته مبادراً ، فأرسل إلى المهلهل وفداً يرجوه أن

يعود إلى مسالمة بنى عمه بعد أن أصاب منهم ما أصاب فى ثأره .
وأراد أن يسل بقية الحقد من قلب المهلهل ، فبعث إليه مع الرسل ولده بجيرا بكتاب يستعطف قلبه فقال له : « إنى مرسل إليك ولدى بجيرا وهو عندى حبيب ، وفوضت إليك الأمر فيه ، فإن لم تكن رضيت إلى اليوم بمن قتلت من شيبان فدونك ابنى جعلته فداءك ! فإما قتلته بأخيك الكريم فهو كفء له ، وإما أطلقته متكرماً إذا رأيت أن تمنّ به علىّ . وأنا فى الحالين راض مادمت تعود بعد ذلك إلى السلام ، وترضى بإصلاح ذات البين ، فقدمضى من الحيين فى هذه الحروب الطويلة من كان بقاؤه خيراً لنا ولكم » .

ومضت أيام بعد سير الوفد إلى المهلهل ، وكان مرة ينتظر عودتهم فى قلق ولهفة ، وقد ملك عليه الحزن قلبه ، فلم يدع فيه مكانا لتجمل أو اطمئنان .

وكان فى يوم من هذه الأيام جالساً فى فناء منزله ، وإلى جانبه صديق له من بنى عمومته ، يحاول أن يعزيه ويخفف عنه ، ويبعث فى قلبه الرجاء ، ولكن اليأس كان يملك على الشيخ كل أمره ، فكان لا يتمالك نفسه من البكاء ، فقال له صاحبه :

— أما تتجمل بالصبر يا أبا الحرث ؟

فقال الشيخ والحسرة تغلبه : ماذا بقى لى فى الحياة يا أبا مالك حتى أتجمل وأصبر ؟ إن هما إلا يومان أقضيهما فى البكاء ثم أمضى .

فقال أبو مالك عاطفا : « لئن بكيت يا أبا الحرث لقد حق لك البكاء . ولـكنا كنا نتأسى بصبرك ونتثبت بثباتك . فلسنا نملك اليوم معك إلا الرثاء لأنفسنا لما فقدنا من أسوتك » .

فقال مرة متنهدا : « واحر قلباه ! لم يبق لى أحد من ولدى . لم يبق لى إلا هذه الفتية الصغار من أبنائهم ، الذين حكم الدهر على أن أعيش لأراهم حولى أيتاماً ضعافا . . . واحر قلبـاه يا همام ! واحر قلباه يا جساس ! » .

ثم أخذ يبكى بكاء مراً ، وصمت جلبسه ينظر إليه فى حزن عميق . وأقبلت عند ذلك امرأة تسير فى بطء ، تتعثر بأذيال ثوبها الأسود ، وتمسح عينيها بطرف خمارها الذى أسدلته على وجهها ، تخفى تحته عبراتها ، فلما صارت إلى جوار الشيخ ، وقفت صامتـة تنظر إليه لحظة ثم غلبتها العـبرة ، فجعلت تنشج ووضعت كفيها على عينيها .

فتنبه الشيخ إليها عند ما سمع شهقاتها ، فنظر إليهـا بعينيه الكليلتين ، وقال بصوت امتزجت فيه بحة البكاء بهزة الإشفاق :

— جليلة ؟ جليلة ؟ .

فقالت المرأة من بين شهقاتهـا : « نعم جليلة يا أبى . جليلة الشقية يا أبى ! » .

فمد الشيخ إليها يديه المرتعشتين وقال بصوت متهدج : « تعالى

يا ابنتى ، اجلسى إلى جوارى ، وامزجى دمعك بدمعى فقد أصبحت مثلك لا أستطيع إلا البكاء » . ثم جعل ينشج مثلها نشيجاً مراً .

فجلست جليلة إلى جنبه ، ووضعت يدها على رأسه وأسندت رأسها باليد الأخرى وأخذت تشاركه فى البكاء ، فلم يقو أبو مالك على البقاء معهما فقام عنهما ، وذهب وهو يرفع يده إلى عينيه ليمسح دمعة مواساة لم يستطع أن يمنعها . ومضت على الوالد وابنته ساعة فى البكاء ، وكأن الدمع قد أزال عنهما بعض وجومهما وفك من عقدة الحديث بينهما ، فالتفت مرة إلى جليلة قائلا : « كفكفى دمعك يا بنيتى ! » .

فمسحت المرأة بكفها على ظهر أبيها وقالت : « لست أدرى يا أبى ماذا أقول لك . لم أجد فى نساء العرب من هى أشد منى نحساً ، ولا أبلغ منى شقاء ، حتى لكأن الزمان لم يجد سواى غرضاً ! » .

فمد الشيخ يده إليها وأخذ يدها بعطف ولكنه لم يتكلم .

فمضت المرأة تقول ، ولا تزال تنشج بين كلماتها : « لم يكف هذا الزمان ما أصابنى بقتل زوجى وفجيعتى بإخوتى وأبناء إخوتى وأعمامى ؛ فأبى إلا أن يجعلنى دائما بين القاتل والمقتول ، ويقف بى أبداً بين السنان الطاعن والقلب المطعون . قتل زوجى وكان قاتله أخى ، ثم قتل إخوتى وقومى فى ثأر صاحبى ، فكان الانتقام له

ببتر أعضائى وتقطيع أوصالى ، ثم حتم على أن يكبر ولدى الهجرس بين ظهرانى قوم أبى ، وهو يحمل فى دمائه العداوة لهم ، ويضم بين جنبيه قلباً يطالبه بالثأر منهم ، حتى انتهى أمره إلى ما انتهى إليه من فجيعتى بآخر إخوتى الذى أكرمه ورباه ، وزوجه بابنته وواساه بنفسه ، ثم سار إلى قومه ليشاركهم فى حربهم على قومى ، فقلبى عليه يتحرق ومنه يتمزق ، إن أصاب أصابنى ، وإن أصيب أثكلنى . واحر قلباه ! وأين الموت منى يا أبتاه ؟ » .

وكان لقول جليلة عند الشيخ أثر أبلغ من أثر التعزية ، فجف دمعه ، وسكن نشيجه ، وهدأت أنفاسه منذ وجد مصاب ابنته أفدح من مصابه ، ورآها أجدر منه بالمواساة وأحق بالرحمة .

ورفع بصره الكليل إليها ينظر فى وجهها ، فاعترضته سحابة من الظلمة تغشاه ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يدرك مقدار ما أصاب ابنته الجميلة من تغير وتبدل . لقد ألهته الهموم كل تلك السنوات عن أن يملأ عينيه منها ، ولم يلحظ فعل السنين فيها ، فلما رآها عند ذلك رأى امرأة ناحلة شاحبة : وجه علته الغضون ، وبشرة تكمشت ، وعود ضئيل ، ونظر كليل ، وجسم متهدم ، ونفس يفيض منها الحزن واليأس ؛ فنسى حزنه فى لحظة ، وجعل يحاول التخفيف عنها ، وغاض دمعه وأخذ يعمل على تجفيف دمعها . قال : « لقد مضى دهر على قتل كليب ، ومضى بعده من

الأعزّاء من سلكوا سبيل الماضين قبلهم . وهل فى الحياة بقاء يا ابنتى ؟ ولئن كان مصاب جساس حديثاً ، يصب القلب لقرب عهده ؛ فإن حزنى عليه أذهلنى عما كان يلبق بى ، ولم يكن الهجرس فى قتله يا ابنتى إلا أحد العرب يثأر لأبيه ، ولعل هذا المصاب يكون آخر الدماء ، ولعل ذلك الضِّبْعَان القاسى مهلهل ابن ربيعة يجد فى قتل جساس ما يروى ظمأه ، ويكفيه من ثأره».

فوقعت كلمات الشيخ فى قلب جليلة موقع الدهن على قرحة الحريق .

فمسحت دموعها وخفت شدة نشيجها ، وقالت وهى أقل يأسا : « وبماذا أجاب المهلهل على رسالتك يا أبى ؟ » .

فقال الشيخ بعد صمت قصير : «لعل الرسل يعودون اليوم . لقد كان موعدهم أمس ولكنهم لم يعودوا » .

وهمت جليلة أن تستمر فى حديثها ، ولكن أبا مالك أقبل عند ذلك مسرعا نحو الشيخ ، فعلمت أنه يريد التحدث إليه . فقامت وذهبت نحو الخيام ، وقد أسدلت خمارها على وجهها ، ولا تزال عيناها تبضان .

وقف الرجل عند الشيخ لحظة ثم قال بعد تردد قصير : « لقد عاد الرسل إلى الحرث بن عباد » .

فرفع الشيخ رأسه بحركة سريعة ، وقال بلهفة : «وما خبرهم ؟ »

فقال الرجل بصوت أجش مخيف : « كان رد مهلهل قتْل بجير » .

فنهض الشيخ يتحامل ولا يقوى على النهوض ، وأسنده صاحبه حتى وقف على رجليه مترنحاً ، ثم قال فى فزع ويأس : « قتل بجير ؟ قتل بجير بن الحـٰرث ؟ » .

ولم ينتظر جواباً على سؤاله ، بل سار مضطرب الخطوات ، وأبو مالك يسنده من ذراعه وقصدا نحو خيام الحـٰرث بن عباد .

١١

كان الحٰرث بن عبـاد فى فناء خيمته عند ما جاء الوفد إلى الحى عائدين من رحلتهم إلى المهلهل بن ربيعة . وكانت زوجه أم الأغر ابنة ربيعة أخت كليب والمهلهل قاعدة عند أطراف الخيـام ، تنتظر كعادتها كل يوم عودة الوفد لـكى ترى ابنها الحبيب عائداً معهم . فإنها أحست منذ أرسله زوجها أن فلذة كبدها يسير مع ذلك الوفد متعرضاً للهلاك . كانت أم الأغر تعرف أخاها المهلهل ، وكانت تحس أن الرحم لن تلين قلبه ولن تعطفه على ولدها الحبيب ؛ لأن دم كليب قد طمس على قلبه ، فلم يبق فيه محلا لرحمة ولا مودة . ولما رأت الرسل مقبلين وحدهم ، أحس قلبها بما كان كأنها شهدته بعينيها ، فقامت مسرعة تسأل فى لهفة عن ولدها سؤال الواله المشدوه ، فأطرق الرسل ومضوا فى سبيلهم نحو خيمة زوجها صامتين ولم تقو ألسنتهم على النطق أمام الأم الثكلى . فاشتعل قلب المرأة وصاحت فى لوعة ، وولولت تنوح فى حرقة ، وسمعها نساء الحى فأقبلن نحوها سراعا وأجبنها بالعويل حتى اشتعل الحى كله بالصياح والبكاء .

وقام الحٰرث مسرعا ليتعرف مبعث الضجة المنتشرة ، فلمـا رأى الرسل عائدين وحدهم وليس فيهم بجير أدرك ما كان ، ولـكنه

ملك نفسه وكبت ما فى قلبه . وذهب بين الخيام يهدد ويسب ويؤنب وينهى ، واتجه إلى امرأته وقال لها عابساً بصوت كهدير الفحل : « يا أم الأعر . لا أرين إحدا كن تبكى أو تصيح ، ولا أسمعنّ منكن صوت نحيب أو عديد ، فوحق مناة إن ابنى لنعم القتيل . كافأ خاله وأطفأ ثأره ، وأنا بقتله راض . وليس من قومى بنى قيس بن ثعلبة من هو أكثر منه بما ولا أكرم مقتلا . فإنه قد أصلح بين ابنى وائل وحقن ما بقى من دمائهم » .

فخمدت الأصوات من رهبة السيد الصارم إلا نشيج الأم الثاكل وهى تحاول كتمان صوتها طاعة لزوجها ، وتأبى حرارة كبدها أن تطيع . فانصرف الحرث إلى الرسل ، ومضى بهم إلى فنائه ، ليسألهم عن جواب كتابه . فاتجه إلى كبير الوفد وقال هادئا : « ماذا قال المهلهل يا أبا ضبيعة ؟ » .

فوقف أبو ضبيعة حيناً صامتاً ، وكان قصيراً دميما . فنظر إليه الحرث وقال فى شىء من الحنق : « قل جوابك أيها الرجل » .

فاقترب الرجل من الحرث كأنه يريد أن يهمس فى أذنه ، ولكنه لم يقدر على أن يبلغ كتفه ، فتردد وبقى مطرقا . فعرف الحرث أنه لا يريد أن يتكلم فى ملأ بنى ثعلبة ، فجذبه من ذراعه فى شىء من العنف حتى تنحى به إلى جانب وقال غاضباً : « تكلم يا جحدر أجبنى بما قال المهلهل . قل ولا تخف من قوله شيئا فلن

يبلغ من القسوة مثل قتل ولدى . هل رضى المهلهل بدم بجير ؟ »

فنظر جحدر إلى الأرض وقال بصوت خافت : « ماذا أقول لك ؟ إذا شئت إيجازاً قلت لك إنه قتل بجيرا ولم يرو به غُلته » .

فصر الحٰرث على أضراسه وقال للرجل : « إذن فلتحمل إلى أذنى كل ما كان منه . قل ولا تدع أمراً إلا وصفته » .

فأخذ جحدر يقص على الحٰرث ما كان من المهلهل منذ ذهب الوفد إليه ، وجعل يفصل له وصف ما رأى من عنفه وسوء رده ، حتى بلغ وصف ما كان منه عنـد ما رأى بجيرا وسأله عن اسمه . فأغمض الحٰرث عينيه وتنفس نفسا عميقا وقال لجحدر :

« دع ذلك الحديث ولا تطل فيه . لقد قتله ».

فنظر إليه جحدر متردداً وأمسك عن الـكلام لحظة ، فصاح به الحٰرث قلقا :

« امض ! امض فى حديثك . أليس قد قتله ؟ » .

فقال جحدر وهو مطرق : « لقد وددت أننى لم أشهد ذلك الأمر ولم أسع فيه . فإن تلك الصورة لا تزال ماثلة أمام عينى لا تفارقنى فى سير ولا فى إقامة ، ولا تبعد فى ليل ولا فى نهار . ولو كانت دماء تغلب تملأ البحـار التى تحيط بالأرض ما حسبتها تروى غليل بنى ثعلبة . لقد قتـله وهو يقول : بؤ بشسع نعل كليب ! » .

فارتد الحٰرث إلى الوراء خطوة ، ونظر إلى محدثه وقد قَلَصت عضلات وجهه وزوى حاجبيه وصاح بصوت أجش : «ماذا قلت؟ بشسع نعل كليب ؟ » :

فهز جحدر رأسه ونظر إلى الأرض وهو يقول فى حزن : « نعم بشسع نعل كليبٌ » .

فصاح الحٰرث : « ألم يكن فى تغلب رجال ؟ ألم يكن فى تغلب رجال ؟ » .

فقال جحدر : « كان امرؤ القيس بن أبان يحاول أن يرده فلم يستطع . لقد بالغ فى النصح والرجاء ، ولكن صوته غرق فى العاصفة الهوجاء » .

فرفع الحٰرث يده مقبوضة فوق رأسه وعض على نواجذه وتنفس نفساً مضطرباً كأنه يختنق ثم قال : « ويل الداعر من غدره ! ياويل زير النساء ! » . ثم سار مسرعا نحو مضارب خيامه يهرول فى اضطراب وقلبه يحترق من الغيظ . وكان فى سيره يبعث ألفاظا متقطعة كأنه يخاطب نفسه ، ويتبع كل لفظ منها آهة مبحوحة ، وكان جحدر والوفد يسيرون وراءه حتى إذا اقترب من منازله نظر وراءه إلى جحدر وقال فى صرخة مكتومة : « لقد بر الخبيث بعهده يوم قال إنه لن يدع شيئاً لكليب حتى ينتقم له ، حتى الشِّسع الذى كان يربط به نعله . فكان ولدى قتيل ذلك الشسع » .

ثم ضحك ضحكة مخيفة حتى ظن جحدر أن الرجل قد جن من وقع مصابه .

فلما صار بين خيامه وقف وصاح ينادى عبدين كانا فى رحبة الحى وقال بصوت ثائر غاضب : « قربا مربط النعامة منى ! »

ثم ذهب إلى خيمته وغاب لحظة وخرج ورمحه فى يده وهو يهزه هزاً عنيفاً ويشمر كمَّ ثوبه عن ذراعه . وصاح بصوت يُدوى :

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال

ثم وقف وركز رمحه فى الرمال وقد غلبه الغضب وامتزج فى قلبه حقد الموتور بحزن الأب المفجوع ، ونظر فرأى امرأته جالسة فى جانب الخيمة تبكى وتحاول إخفاء صوتها ، ونظرت إليه بعينيها المحمرتين فلما رأت ما على مظهره من أثر الغضب قامت نحوه متعجبة حتى اقتربت منه كأنها تحاول أن تسأله عما غيَّره . فنظر إليها ثم نظر إلى جحدر وصاح كأنه يخاطبه :

قل لأم الأغر تبك بجيرا حيل بين الرجال والأموال
فلعمرى لأبكينَّ بجيرا ما أتى الماء من رؤوس الجبال
لهفَ نفسى على بجير إذا ما جالت الخيل يوم حرب عضال
قتلوه بشسع نعل كليب إنّ قتل الكريم بالشسع غال

ثم صمت قليلا كأنه غصَّ بريقه ، فانفجرت أم الأغر صائحة كأنها كانت تنتظر تلك الكلمات لكى تفرج عن نفسها بالعويل

والبكاء . وأسرع إليها النساء فعاودن ما كن أمسكن عنه من الندب والعويل واشتعل الحى كله بالبكاء . واستأنف الحرث القول بعد حين وهو ينظر بعينين شاخصتين نحو الأفق لا يلتفت إلى جمع بنى ثعلبة المتزاحم حوله .

فصاح فى حزن وغيظ :

يا بجير الخيرات لا صلح حتى   تملأ البيد من رؤوس الرجال
لم أكن من جناتها علم اللـه   وإنى لحرها اليوم صال

ثم صمت وأطرق حينا لا يقوى على الكلام . ثم انتفض فجأة وركز رمحه فى الرمال وسل سيفه وهزه فوق رأسه وعاد إلى إنشاده بعد أن استطاع الكلام فصاح بصوت يشبه هدير الريح بين الصخور :

قربا مربط النعامة منى   لقحت حرب وائل عن حيال
فلعمرى لأقتلن ببجير   عدد الذر والحصا والرمال
قربا مربط النعامة منى   ليس قولى يراد لا بل فعالى

ثم أغمد سيفه وألقى برمحه أمامه فى وسط حلقة الرجال وتحرك مهرولا راجعاً إلى خيمته وهو يهمهم ويهدر ، فجعل يبحث عن سلاحه ودروعه ، وأخذ قوسه التى كان قد نزع عنها وترها وأخذ قطعة من الجلد كانت فى ركن من الخيمة وخرج على قومه وهو يربط طرفها فى رأس القوس ويقول فى أثناء ذلك كأنه يخاطب نفسه :

قربا مربط النعامة منى   قرباها وقربا سربالى
قرباها وقربا لأمتى زَغْفا   دِلاصا ترد حدّ النبال
قرباها لمرهفات حداد   لقراع الكهول يوم النزال

وأخذ يذهب إلى خيمته يجهر فيها سلاحه شيئاً بعد شيء ، وهو كلما جهز شيئاً خرج به وأنشد قومه بيتاً أو بعض أبيات ، ثم يرجع إلى الخيمة فيجهز شيئاً آخر يعود بعده إلى رحبة الحى ليستمر فى إنشاده المضطرب حتى تجمعت فى الرحبة كومة من الدروع والسلاح .

فى هذه الساعة كان الشيخ مرة قد بلغ منازل الحْـرث ورأى الفرسان ملتفين حول زعيمهم الثائر ، فانفرجت له الجموع حتى اقترب من الحْـرث ومد يده إليه وقال له بصوت متهدج : «مصاب جلل يا أبا بجير ! » .

فالتفت الحْـرث إليه ومد يده إليه مصافحا وقد ملك نفسه حتى علا وجهه السكون وزال عنه اضطراب الغضب ، واكتسى بدل ذلك هدوءاً ينم عن عزيمة ثابتة وقال يخاطب الشيخ : « ستذوق تغلب عاقبة ظلمها » .

وكانت فرسه النعامة قد جاءت إليه عند ذلك يقودها العبدان فاقترب منها ومسح رأسها وهى تصهل وتتمسح به . ثم اخترط سيفه وقبض على شعر ناصيتها فجزه ، ثم قبض على ذيلها الطويل

فقطعه ، وقد سكنت الفرس وظهر عليها وجوم يشبه أن يكون حزنا وقال كأنه يخاطبها : « ليس بعد اليوم تدليل » .

ثم دفعها إلى العبدين الواقفين عند رأسها فى صمت وخشوع وقال : « قرباها منى فالليلة نسير إلى قتَلة بجير » .

ثم أخذ الشيخ مرة من تحت ذراعه وسار به إلى خيمته وتبعهما جحدر وبعض كبار قيس بن ثعلبة وانصرف شبان الحى ليعدوا خيولهم للغزوة العاجلة فى تلك الليلة .

١٢

كان صباحاً عاصف الرياح ثائر الرمال ، وكان الحر على وقدته ولم تطلع الشمس بعدُ ، تكاد الأنفاس تختنق منه ؛ حر يشقق الشفاه ، ويحرقِ الوجوه ، ويحرج الصدور .

وكان فرسان تغلب مجتمعين واجمين لما بلغهم من تحرك بكر إليهم مرة أخرى وإقبالها عليهم بالعدد الكبير ، والسلاح المشحوذ ، والخيل المسوَّمة ، ومعهم الحٰرث بن عباد فى قومه بنى قيس ابن ثعلبة .

لقد اشتد ساعد بنى بكر منذ غضب الحٰرث بن عباد لقتل ابنه بجير ، والتف حولهم من كان قعد عن نصرتهم من العشائر والبطون ، وضعفت تغلب بمن انصرف عنها من حلفائها ، حتى لم يبق معها إلا قبائل النمر بن قاسط . وفى مدة عام واحد ذاقت مرارة الهزيمة مرة بعد مرة ، وجعلت ترتد من موطن إلى موطن ، وتنزح من موضع بعد موضع ، حتى ألقت رحالها أخيراً عند (قضة) فى أطراف نجد من الشمال . ولكن الحٰرث بن عباد لم يَضع ثأره ، ولم يُهدئ من حقده ؛ بل كان لا يزال يثب فى أثر تغلب لينتقم لقتل ابنه الحبيب بجير المظلوم ؛ وكانت شيبان تقبل معه على الحرب

تحت راية الحٰرث بن همام بن مرة ، كأنها الذئاب الجائعة ، لتغسل عن كرامتها ما أصابها من هزائم تغلب فى طوال السنين المنصرمة .

اجتمعت تغلب فى ذلك الصباح القائظ فى رحبة حلالها يتشاور قادتها فيما هم فاعلون فى لقاء عدوهم المقبل ، فقد سمعوا أنه مُغير عليهم بجيش خميس ليعيد عليهم الكرة بعد انتصاره الأخير فى وادى القصيبات ، يقوده الحارثان : الحٰرث بن عباد ، والحٰرث ابن همام ، الذى آلت إليه زعامة شيبان .

جلس شيوخ تغلب ، وأصحاب الرأى فيها ، وفرسانها الشجعان من الشباب ، وقد لفُّوا اللثُم على وجوههم اتقاء الرياح اللافحة ، وعصف الرمال يزيد نفوسهم الثائرة ضيقا .

ووقف الفارس الكهل امرؤ القيس بن أبان يتكلم، فأرهف الجلوس آذانهم لاختطاف كلماته من أذيال الهواء الصاخب . فقال « أى قوم ! لا تردوا اليوم نصيحتى فقد جربتم من عواقب إغفالها ما كان أولى بكم لو تجنبتموه . لقد نصحت المهلهل ألا يقتل الفتى ابن الحٰرث فلم يقبل نصيحتى ، ولقد رأيتم ماذا حل بنا من وراء بغيه ، رأيتم تألب بنى بكر علينا بعد أن كانوا عوناً لنا ، فلا يمضى يوم حتى نسمع بحليف منهم ينفضُّ من حولنا ، أو نصير منهم ينضوى تحت لواء عدونا ؛ وإذا تمادى الأمر بنا بعد اليوم لم نأمن أن يحل بنا من الكوارث أمثال ما أنزلناه بآل شيبان فى تلك

السنين . فالرأى عندى أن نرحل من هذا القفر الأجرد ، وحسبنا ما لقينا فيه من هزيمة بعد هزيمة فإذا نحن عدنا إلى ديارنا . . . » .

وأراد امرؤ القيس أن يمضى فى قوله ، لو لا أن قام شاب وسيم من طرف الجماعة ، وصاح به غاضباً : « حسبك يا امرأ القيس من حقدك على المهلهل . فوحق مناة إنك لا تقول قولك هذا إلا حسداً له ومنازعة لسيادته » .

وتحرك لسماع هذه الكلمات جماعة كان جلهم من شبان تغلب الذين لا يرون فى المهلهل إلا بطلهم المهيب ، وفارسهم الذى لا يبارى ، يحبون أن يسيروا وراءه فى كل موطن ويطيعونه وإن مضى بهم إلى بَرْك الغِماد من أقصى الأرض ، فقد تعلقت نفوسهم به ، وحل الإعجاب به من قلوبهم حيث لا تبلغ النصيحة .

وارتفعت أصوات هؤلاء من جوانب الجمع يقولون : « صدقت يا هِجرس ! صدقت يا هجرس بن كليب ! بعداً للجبناء ! لا نطيع غير المهلهل » .

ونظر الشيوخ حولهم مترددين ، وقام بعضهم يريد الكلام فلم يقوَ على إغراق ضجة الشباب الثائر ، فلم يجد امرؤ القيس بن أبان بداً من الصمت ، ومضى ذاهبا عن الجمع وهو غاضب حتى قبع معتزلا فى حِلَّته . ونهض القوم بعده فى اضطراب وضجيج ، فانصرف الشيوخ واجمين فرادى وثُناء ، واجتمع الشبان فى صعيد

واحد وقد جرفتهم الحماسة ، وساروا والهجرس بن كليب فى طليعتهم قاصدين رِحلة المهلهل ، يهتفون به ويجددون العهد على طاعته ، فقد كان المهلهل فى هذا اليوم مقيما فى بيته ، لم يحضر فى ذلك الجمع من أثر جراح أصابته فى آخر وقعة أصابتهم بكرفيها ، وقعة القصيبات.

وسمع المهلهل ضجتهم وهو فى فراشه ، وكانت ابنته سلمى تمسح الدماء عن جرح عميق فى أعلى ذراعه بعد أن ضمدت سائر جراحه ، وكانت تحدثه عن زوجها وابن عمها الهجرس بن كليب الذى تزوجها عند ما لاذ بعمه فى قومه بنى تغلب بعد أن قتل خاله جساس بن مرة . ولما انتهت من غسل جرحه بالماء الساخن وذرت عليه رماداً من أعواد طرفاء محروقة ، ولفت حوله ضمادة من الصوف فقال لها أبوها :

— أما قال لك الهجرس أين خرج اليوم ؟ لقد بكر فى الخروج قبل أن أراه

فقالت له سلمى مترددة : ذهب إلى الناس ليرى ماذا يصنع بهم ابن أبان

فتحرك المهلهل فى مكانه قلقا وأراد أن يمد يده إلى سيفه ، ولكنه ردها ممتعضا من الألم الذى أحسه عندما حركها . فنظر إلى ابنته وقال لها فى غيظ : «لقد تحرك ابن أبان منذ اليوم . أو يحسب أن هذه الجراح تقعدنى فى كسر بيتى ؟ لا وحق مناة ، ما أدعه

ينفث سمه . ولأسحقن رأسه قبل أن يستطيع أن يبلغ مأربه » .

ثم تحامل حتى قام وقال لسلمى :

« ألقى علىّ ردائى وشملتى . فلأذهبن إليه لأهشم أنفه قبل أن يرفعه » .

فقالت سلمى : « لا يرعك ابن أبان يا أبت ، فإن الهجرس هناك يرى ويسمع . ولا أظنه يدع له مجالا لإفساد الناس وتفريق كلمتهم . لقد حدثنى الهجرس عن أصحاب له تواعدوا على أهبة ، ليفسدوا على ابن أبان تدبيره ، وقد أخذوا السلاح وجعلوه تحت ثيابهم ، فإذا لم يستطيعوا تدارك أمره باللفظ حكموا بينهم وبينه السيف » .

فاطمأن المهلهل لقولها شيئاً ، ولكنه أطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال :

« ما ينبغى لى أن أطيل احتجابى عن الناس يا سلمى ، قد عرفت الناس ، فهم لا يذكرون من تطول غيبته . هاتى شملتى وردائى » .

فلم تستطع سلمى إلا أن تطيع أباها ، فذهبت إلى ركن من الخيمة وأخذت تلتمس لأبيها بعض ما اعتاد لبسه فى نوادى قومه من ثياب الديباج الأصفر ، والقباطى البيضاء وبرود اليمن الموشاة ، وحملت من ذلك شيئاً فى يديها ليختار منها ما يحب ، ولكن ضجة

كانت تقترب عند ذلك ، فيها أصوات ترتفع حيناً وتخبو حينا . فوقفت فى مكانها لتسمع ، وأصاخ المهلهل بأذنه فى شىء من الدهشة ؛ ثم اقتربت الأصوات واتضحت ، فإذا بها صيحات تهتف باسم المهلهل سيد ربيعة ، وميزت منها سلمى صوت زوجها الحبيب الهجرس بن كليب . فتبسمت وتبسم المهلهل ، وقد وقع فى قلبيهما أن الهجرس قد حمل معه تغلب وأفسد وحده تدبير ابن أبان . وألبست سلمى أباها ووضعت ثوبا من الديباج على كتفه ، فلما صار الهجرس وأصحابه فى رحبة الحى خرج عليهم المهلهل هشاً بشاً ، وما كاد جمع الشباب يراه حتى علت أصواته فى تحية صاخبة ترددت أصداؤها بين ثنايا الشعاب ، فتبسم المهلهل وركز رمحه فى الرمل واتكأ عليه بيسراه ، وقال بعد أن هدأت الأصوات :

— مرحى يا شباب تغلب ! فقد أقررتم عينى ، وأزلتم ألمى . إن جراح الحرب التى مزقت جسمى تنطق مرحبة بكم ، كأن فى كل منها لساناً يتحرك بشكركم . لقد ثارت تغلب منذ سنين طويلة تطالب بدم بطلها الذى لم يكن فى العرب له كفء ، وأميرها الذى عجز النساء أن يلدن مثله ، وإن تطاول الدهر . ولم يكن فى تلك الدماء التى أهريقت من العدو مايقوّم بدمه أو يفى لنا بحقه . بل لقد قتل من أبطالنا فى مواقعهم من لا تشفينا دماء بكر جميعاً من وترنا بهم . فليس بيننا وبين القوم إلا حد السيوف ، وأسنة الرماح .

لانوادعهم ولا نخيم عن لقائهم حتى نفنيهم تقتيلا ، ونقطع أوصالهم تقطيعا . واكليباه ! هل نرجع السيوف إلى أغمادها ولا يزال فى بكر شريف ؟ واتغلباه ! هل ندع دماء من قتل من تغلب ولا يزال بعدوكم جمع . ليس بيننا وبينهم إلا طعن الكلى وضرب الرقاب ، وتفليق الهام وتخريق الصدور . وإذا كان فى تغلب من زعزعته أول صدمة فبعداً للجبناء ! ألا بعداً للجبناء !

فتلقف الجمع هذه الكلمة وصاح فى حماسة: «ألا بعداً للجبناء !» وجعلوا يرددونها .

وسكت المهلهل عند ذلك فإن الضجة التى علت من صيحات الجمع المضطرب أغرقت آخر كلماته فلم يستطع المضى فى الحديث . وعاد السيل الثائر من ساحة المهلهل وتفرق بين الأحياء منادياً للحرب ، فلم يبق فى منازل تغلب من تجرأ على أن ينطق بحرف فى ذكر امرىء القيس بن أبان .

ودخل الهجرس إلى خيمة عمه فحدثه بما كان من قول ابن أبان وما كان منه ثم قال :

— ولا أحسب الأمر ينتهى يا عماه إلى حيث انتهى إليه لو طال بنا المقام .

فقال المهلهل وقد عبس عبسة عميقة :

— أجل يا ولدى ! لن أطمئن وهذا الأرقم يتحين الفرص

للوثوب . ولـكن هون عليك فما كان عمك ليخاف هذه الزواحف .

فقال الهجرس :

إن امرأ القيس قد ذهب إلى منزله اليوم ولا أراه يجرؤ على أمر إلا بعد أن تنصره هذه الفئة من الشيوخ .

فأطرق المهلهل حيناً ثم قال فى غيظ :

— وحق آلهة وائل ما هو بمنته حتى أذيقه عضة سـيفى . ولو لا أن يقول الناس إن المهلهل يقتل أصحابه لما أبقيت عليه منذ حين . لقد عرفته ورأيت خلافه علىّ منذ نصحنى فى أمر بجير . فإنه ما قال كلمته التى قالها يقصد النصح ولا الخير ، بل قالها لتسير فى الناس فتكون وصمة عار تلحق بى .

فقال الهجرس : « وإنه لا يزال يتحدث بها إلى الساعة . وكانت هى أول كلماته فى اجتماع اليوم » .

فقال المهلهل : « ويل له من خبيث ! إنه ليضلل الحمق من قومى إذ يسمعون أنه نصحنى بالعفو عن الفتى المسكين ابن أم الأغر فعصيته وقتلت الفتى بغير جريرة » .

فقال الهجرس : «صدقت ياعماه ، فقد رأيت أثر قوله فى الناس منذ تكلم . فأخذوا يتهامسون فيما بينهم عما أصاب تغلب من جراء مخالفتك وقتل الفتى » .

فصاح المهلهل :

— أغرار وحق أوال يا ولدى ! ما بعث الحرث بولده إلىّ إلا وهو يأمرنى بالكف عن حرب قومه . فلو خالفته وأبيت إلا الحرب لما كان منه إلا أن ينصر قومه . لقد عرفت منذ تحرك الحرث أنه إنما غضب لمن قتل من بكر ، وأنه لا يريد إلا التماس الحيلة لإثارة الناس علىّ . فبعث بابنه بجير حتى يظهر للعرب جميعا أنه قد أرضانى ورغب فى إنصافى . ولو لم أقتل بجيراً لما عدل عن حربه ، ولما انصرف عن نصرة قومه . لقد عرفت أنه عدو منذ بعث إلىّ رسالته . وما كان ينبغى لى إلا أن أبدأ عدوّى بالحرب قبل أن يبدأنى .

وسكت لحظة ثم نظر إلى الهجرس وقال وقد ذهب عنه الوجوم :

— دع هذا يا هجرس فليس يغنى عنا القول . هى الحرب فلنمض إليها . سنمضى إليها قبل أن تلتئم هذه الجراح . هلم ياولدى فلن نطيل الحبل لابن أبان ليمضى فى مكره وكيده . لأحملنه على الحرب حملا ، إذا لم يكن من الحزم أن أجمه سيفى . هلم يا ولدى ، فالليلة نستعد للقاء عدونا .

ثم خرج وسار الهجرس إلى جواره يقصدان مجمع القوم فى الطرف الآخر من المحلة .

١٣

تجهز بنو بكر للمسير إلى تغلب فى وادى قِضة ، ولم يدعوا لهم فرصة يتنفسون فيها عقب هزيمتهم فى القصيبات ، وقد انتعشت نفوس بكر بعد هزائمها المتكررة ، وعاودها الأمل والقوة بعد الانتصار ، فلم تطق الصبر ، وأرادت أن تنتهز فرصة ما أصاب أعداءها من الوهن والجراح لكى تجعل الوقعة المقبلة قاصمة الظهر .
وزاد من حرص بكر على الإسراع إلى مواصلة الحرب ما بلغها من أنباء الخلاف بين شيوخ تغلب وشبانها ؛ فقد سار الركبان بأحاديث ما يضمره المهلهل لامرئ القيس بن أبان ، وما أحدثه الهجرس بن كليب من الفرقة بين شيوخ القوم وبين ناشئتهم ، فعلموا أنهم إن صدموا عدوهم صدمة عنيفة لم يجدوه إلا مقسم الأهواء ، مشعث الآراء . فلم تقعدهم شدة الحر عن الاستعداد السريع ، ولم تثنهم الرياح العاصفة المحرقة عن عزيمة المسير ؛ فاجتمعوا فى ناديهم فى لباس الحرب يتشاورون فى الخطة المقبلة ، وكان فيهم فرسان من شيبان وقيس بن ثعلبة وعجل وحنيفة ، وفيهم الفارس الشاعر الذى ما زال رغم تقادم السنين بطل الحروب الفند بن سهل سيد قبائل بكر باليمامة ، وقد أتى مع قومه لنصرة إخوانه عند ما بلغه اعتداء

المهلهل بقتل بجير . وكان الحٰرث بن عباد فى صدر النادى وقد جلس حوله شيوخ العشائر والبطون فى حلقة مفرغة ، وجلس سائر القوم صفوفاً غير منتظمة بعضها يتداخل فى بعض .

ولما التأم الجمع وقف الحارث يتكلم فقال :

— يا فوارس بكر ! قد علمتم ما عقدنا عليه النية من السير إلى هؤلاء الظلمة حتى لا ندع لهم متنفساً من السلام لكى نذيقهم وبال ظلمهم ونقذف بهم فى مصارع بغيهم . ولكننى أشفق أن تسيروا فى وقدة هذه الحرور ، فهل ترون أن نؤجل المسير حتى تهدأ هذه الريح ؟ .

ولما أتم قوله نظر إلى الحٰرث بن همام بن مرة سيد شيبان كأنه يدعوه إلى إعلان رأيه ، فتحرك الحٰرث يريد الكلام ولكن علت ضجة من الجمع لم يستطع معها الحارث أن يتكلم ، فتريث وهو ينظر إلى مَنْ حوله فى شىء من الارتباك . فوثب جحدر بن ضبيعة قائما وكان قصيراً دميما ، فما كاد يقف حتى زادت الضجة اشتدادا ، وتقاذفت نحوه ألفاظ الدعابة والفكاهة . فلم يرهبه ذلك ، بل أعلى صوته وقال بصوت حاد :

— على رسلكم حتى أقول كلمة .

وما كاد ينطق حتى رمته الرياح الثائرة بلفحة رملية اضطرته إلى أن يحول وجهه عنها ، وانفجرت ضحكة عالية لم يتخلف

عنها أحد من الشيوخ أو الشبان ، فضحك جحدر مشاركا فى المرح الشامل ، ولـكنه لم يجلس ولم يتردد بل صاح بصوته الحاد :

— كأننى بهذه الريح تريد أن تعدل بى عن رأيى ، ولـكنى وحق أوال لا أنثنى عنه وإن قذفتنى السماء بصواعقها . لا بد أن نسير اليوم إلى قضة .

فعلت ضجة استحسان صحبتها ضحكات ومداعبات، وصاح فتى من آخر الجمع : « قف يا جحدر فوق صخرة حتى نراك » .

فرادت ضجة الضحك علوا ، ولم يشأ جحدر أن يدع الفرصة بغير أن ينتهزها ، فوثب على كتفى فتى شديد قريب منـه فوقف عليهما وقال ضاحكا : « هل أغيب الآن عن عين أحد ؟ » .

ثم نزل سريعاً وهو يشارك فى الضحكات العالية التى لم تفتر ، ثم أشار بيده للقوم أن يهدأوا ، فسكنت الأصوات ونظرت إليه العيون ومالت إليه الأسماع فى عطف فقال جاداً :

— « نحن اليوم فى جماعة لم يجتمع لنا مثلها من قبل ، فإذا نحن سرنا إلى العدو اليوم فاجأناه بما لا قبل له به وكانت الموقعـة القاضية » .

فتجاوبت الأركان بصيحات : مرحى ! أحسنت !

واستمر جحدر فقال : « ولـكن لى عليكم شريطة قبـل أن أفرغ من قولى » .

فصاح به أفراد من جواب الجمع : « لك ما شرطت فاحتكم ».

فقال جحدر وهو يضحك : « لقد هممت أن أشترط لنفسى نصف هذا الفىء الذى سنغنمه اليوم . ولكنى عدلت عن ذلك . وحسبى أن أشترط أمراً هو أهون عليكم منه . إذا نحن سرنا اليوم فى جماعتنا هذه خشيت أن يختلط علينا الأمر فلا يميز أحدنا أصحابه من أعدائه ، وأخشى أن يخالطنا العدو وهو قليل فلا نجد دوننا من نضربه فيضرب بعضنا بعضا فى حماسة القتال » .

فنظر الناس إليه حينا فى صمت ، وقد عجبوا أن يمزج هذا الرجل العجيب هزله بمثل هذا الجد الجاهم . ونهض الفند بن سهل سيد بكر اليمامة فقال :

— « أما إنها لكلمة حق صدق فيها أخى جحدر ونصح . فلقد أقبلنا عليكم منذ قليل بوجوه جديدة لم يسبق لكم عهد بها ، ولا بد لنا من علامة نتعارف بها » .

وأقبل الجمع بعضه على بعض يتحاورون فى الحديث ، فقام الحرث بن عباد وما رآه الناس حتى خشعوا وهدأت الأصوات وتحولت إليه الأبصار فقال : « أيها الإخوان ! لقد صدق أخى أبو ضبيعة إذ قال إنه يجب علينا أن نجعل لأنفسنا علامة نتعارف بها ، وأرى أن نحلق رؤوسنا جميعاً فتكون تلك ميزتنا وسِمَتَنا » .

فوثب جَحْدَر على قدميه وقال فجأة : « وماذا يبقى لى إذا

حلقت لِمَّتي يا أبا بجير ؟ » .

فعلت ضجة الضحك مرة أخرى واستمر جحدر يقول ضاحكا :

« أنتم ترون أن شعرى نصف قامتى . وبغيره يصبح لى وجه قرد أصلع ، فاتركوا لى لمتى ، وافعلوا ما شئتم فى لممكم » .

فصاح فتى من وسط الجماعة يمزح قائلا : « اشترها منا ، فلن نتركها لك بغير ثمن » .

فصاح جحدر فى جد : « أشتريها بأول فارس من العدو يطلع عليكم ، لكم على أن أقتل أول فارس من تغلب يقبل نحوكم » .

فصاحت الجماعة : « قبلنا ! قبلنا ! » .

فأشار الحرث بن عباد للجماعة أن تنصت إليه ثم قال : « لا بأس بهذا ! ببيع لجحدر لمته . وأما نحن فنحلق لممنا » .

فصاح الفند بن سهل ضاحكا : «هذا إذاً يوم تَحلاق اللمم».

فنظر إليه الحارث باسماً وقال : « نعم هو هذا ! هو يوم تحلاق اللمم » .

وسكت لحظة ثم قال : «وقد علمتم أن تغلب تقيم الآن فى قِضَّة وسط صحراء مقفرة . وسنكون فيها فى أرض غريبة لا نعرف موارد مياهها ولا ندرى لعل تغلب قد غَوَّرت آبارها وطَمَّت عيونها توقعا لمسيرنا إليها — فلا بد لنا من حيلة فى تدبير ما نحتاج إليه من الماء قبل أن نذهب إلى عدونا فى عقر داره » .

فصاح جحدر وقد وثب قائماً : « نأخذ معنا من الماء ما يكفينا حتى إذا ما التحم الجبشان حمله لنا النساء وسرْن من خلفنا ، فإذا عطِشنا رجعنا إليهن لنرتوى » .

فصاح به شاب ضاحكا : «على أن لا يروى النساء إلا حليقا» .

فقال جحدر : «لك علىّ يا ابن أخى ألا أعود إليهن إلا مُعلَما. لن أعود إليهن إلا حاملا لهن أسيرا » .

وكان للفند بن سهل بنتان قد وقفتا فى فتيات بكر عندأطراف الجمع يستمعن الحديث ، وكانتا فتاتين ذَواتَى جُرأة وشهامة .

فصاحت كبراهما : «نسير وراءكم لنحمل الماء ؟ هذا لانرضى به أبداً » .

فتحولت الأنظار إليها وقال الحرث : « وماذا تريدين يا ابنة الكرام ؟ » .

قالت الفتاة فى حماسة : « تحمل كل منا إداوة ماء وهراوة غليظة ، فإذا مررنا بحليق طريح أسونا جرحه وسقيناه ، وإذا مررنا بتغلبى صريع قضينا عليه » .

فعلت ضجة عامة من الجماعة — ضجة الإعجاب والأريحيَّة ، وقال الحرث ناظراً إلى الفند : « لتكن ابنة الفند أول امرأة فى العرب أشركت النساء فى الحرب ! » .

ثم نظر إلى الفتاة وقال : «هلمى يافتاة ، فمثلك من تلد الأبطال!» .

بعد ساعة كانت قبائل بكر تتحرك سائرة نحو الشمال ، وهى تملأ فضاء الأرض بالخيل والرجال والمطايا من الإبل فوقعها الظعائن من النساء تليها الروايا تحمل الماء ، وفى آخر القوم جاء العبيد يسوقون جنائب الخيل والإبل لتحل محل ما يقتل فى الحرب من الدواب .

وكان اليوم التالى صنو سابقه فى الحر اللافح والريح الثائرة والشمس المحرقة والرمال السافية . واجتمعت فيه قبائل بكر كلها تحت لواء الحارثين : الحرث بن عباد على جناح والحرث بن همام بن مرة على جناح ، وأبطال القبائل كل منهم فى قومه يتساندون ويتعاونون فيما بينهم . والتقى الجيشان ، فكان أول من برز من بكر جحدر بن ضبيعه يلتمس ثمن شعره الذى لم يحلق ، واندفع إلى تغلب فجأة فاحتضن أول فارس طلع عليه ، ولم يكن التغلبى على استعداد لذلك النوع من المنازلة ، فهى طريقة ابتكرها الحرث بن عباد وتعلمها منه فى ذلك اليوم جحدر بن ضبيعة : أن يهجم على عدوه فى سرعة البرق الخاطف ، فلا يضرب ولا يطعن ، ولكن يحتضنه ويعدو به راجعاً إلى قومه ، وعاد جحدر بأسيره مطروحاً أمامه على ظهر الفرس وهو يحرك رجليه وذراعيه فى الهواء يائساً . فضحك فرسان بكر وصاحوا مرحبين ، وغضب فرسان تغلب وتصايحوا يحرض بعضهم بعضاً على دفع المنجمة بأخرى مثلها ،

وما هو إلا قليل حتى التحم الجيشان فى حرب عامة .

مضى معظم النهار والقتال على استعاره ، الحرث بن عباد يطاعن ويضرب فى تغلب ، والمهلهل مع جراحه يفرى فرياً فى بكر ، ودفع جحدر المسكين ثمن لمته عظيما ، فإنه مازال يحارب حتى جرح ، فلما مرت به فتيات بكر حسبنه تغلبياً ، فطلب منهن شربة ماء فأهوين عليه بالهراوى ، وهو كلما صاح بهن أنه بكرى حسبنه يخدعهن ، فزدن فى ضربه شدة حتى قتلنه كما قتلن كل جريح آخر غير حليق .

ولما أحست تغلب شدة وطأة عدوها عليها لجأت إلى الحيلة القديمة عند العرب فأدبرت مستهزمة ، وتبعتها بكر وهى تظن أن اليوم قد انتهى إلى نصر تشتفى به من عدوها الشفاء الكامل ، ولكنها ما كادت تبلغ وسط السهل ، حتى رأت تغلب قد وقفت فجأة عند ما نادى صوت المهلهل صائحاً : « واكليباه ! » .

وكانت تلك علامة — فوقف الفرسان وارتدوا على بكر وهى فى تفككها مستنيمة إلى توهم النصره . واهتزت بكر هزة عنيفة من الصدمة ، وأقبل عليها المهلهل كالصاعقة ، وحوله حلقة من الصناديد يضربون كأنهم يحصدون حصداً ، فتردد البكريون ملياً ، ثم تزعزعوا ثم لووا لجم الخيل وولوا الأدبار يطلبون النجاة من سيف المهلهل ومن حوله .

كانت فتيات بكر عند ذلك فى آخر السهل يسعين سعياً

حثيثاً ليدركن قومهن الذين أسرعوا فى آثار تغلب المنهزمة ، وفيما هن فى سيرهن أبصرن فرسان بكر مقبلين نحوهن منهزمين وقد تصدعت صفوفهم وتشتت شملهم ، وخيول المهلهل فى آثارهم تصيح : « واكليباه ! » .

فوقفن صفاً فى طريق الخيول المقبلة ، وخرجت ابنة الفند إلى صدر الصف ، وصاحت : « إلى أين يا خفاف القلوب ؟ » .

وأخذت تنشد نشيداً والفتيات ينشدن وراءها :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق وندهن المفارق
إن تدبروا نفارق فراق غير وامق عرس المولّى طالق
والعار منه لاحق

فاضطر الفرسان أن يقفوا خوف أن يطأوا الفتيات بخيولهم ، ثم سمعوا نشيدهن ، فثارت كرامتهم وأحسوا الخجل من هزيمتهم ، ودعا بعضهم بعضاً للثبات ، ووجد القواد فرصة لتثبيت القلوب ، ولم الشعث ، وثنوا أعِنَّة الخيل إلى وجه العدو اللاحق بهم وتقدموا إلى لقاء المهلهل ومن معه وكان أعنف اصطدام وأشد قتال .

أدرك الحرث بن عباد قومه المنهزمين بعد لأى ، وكان لم ينهزم معهم بل وقف فى جماعة قليلة يحارب فى موضعه الأول ، وجاء الشيخ الشجاع الفند بن سهل كذلك لما رأى أن مكان الحرب قد تحول ، وجعل يحرض قومه وهو يحارب فى طليعتهم ، ورأى

الحرث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه فى وسط فرسانه لا يدنو من كتيبة حتى يفرقها ، ولا يقبل على جماعة حتى يشتتها ، فنظر حوله وقال صائحا : « هذا صيد كريم » .

ثم ركض فرسه النعامة متجهاً نحو الفارس المجهول ، وما هو إلا قليل حتى كان عائدا وقد وضع الفارس المخيف أمامه على ظهر النعامة ، والبكريون يستقبلونه بصيحة فرح تملأ الفضاء . وما كادت تغلب ترى المهلهل أسيراً حتى ولى فرسانها الأدبار وتعقبهم فرسان بكر يتخطفونهم بالرماح .

وركض الحرث فرسه وأسيره أمامه ، وإلى جواره الفند بن سهل حتى بلغوا مؤخرة الجيش فألقى به على الأرض ووقف يتأمله.

وكان الفارس الأسير فى عده كاملة من سلاحه ودروعه ، لا يظهر منه إلا عينان تبرقان من وراء المِغفر ، فلما ألقاه الحرث على الأرض وقف مطرقاً كاسفاً ، فسأله الحرث : « من أنت لا أمَّ لك ؟ » .

فقال الفارس المقنع : « أنا أسيرك » .

فسأله الحرث : « ما بال رمحك طويلا ؟ » .

فقال الفارس : « لم يغن عنى طوله » .

فقال الحرث ساخراً : « رمح الجبان طويل » .

فعلت ضحكة ساخرة من حوله ، واهتز الفارس من وقع

الإهانة ، ولكنه لم يتكلم .

ولما خمدت أصوات الضحك قال الحرث : « لقد حسبتك المهلهل ؟ » .

فقال الأسير « وأنى لك أن تصيبه » .

فقال الحرث فى غيظ : « وحق مناة لو رأيته ما نجا » .

فقال الأسير : « أتريد أن تراه ؟ » .

فقال الحرث مسرعاً : « من أجله سعينا إلى هنا » .

فقال الأسير : « وماذا تفعل لو دللتك عليه ؟ » .

قال الحرث ساخراً : « أطلقك حراً » .

فقال الأسير متهكما وفى صوته اضطراب يسير : « ومن يكفل لى صدقك ؟ » .

فظهر الغضب فى وجه الحرث ، ولكنه أجاب فى لهفة : «سل من شئت أن يكفل لك صدقى » .

فتقدم الأسير إلى الشيخ الشجاع الفند بن سهل ، وكان إلى جوار الحرث وقال : « أريد هذا ضامناً » .

فنظر الشيخ إلى الحرث متردداً ، فقال له الحرث : « اضمن له يا أبا مالك » .

فقال الشيخ : « ضمنت لك وفاءه ، فمن أنت ؟ » .

فلم يجبه الأسير ، بل نظر إلى الحرث وقال له : « أتريد أن ترى المهلهل ؟ » .

فقال له الحرث بحقد : « نعم . قلت لك أريد أن أراه ، لأضع هذا السيف فى قلبه » .

فنزع الفارس بيضته عن رأسه وقال :

« هأنذا المهلهل ، فاقتلنى إن استطعت » .

فأسرع الشيخ الفند بن سهل ووقف دونه خشية أن يبادر الحرث إليه فيقتله وينقض عهده فى ضمانه ، فيلحقه من ذلك عار الأبد » .

وارتفعت همهمة فى الجمع الملتف حول المهلهل ، بين صيحة غضب ، وأنّة أسف ، وآهة حقد .

ووقف الحرث بن عباد قابضاً على سيفه وهو يرتعد من الغيظ وقال : « ثكلتك أمك أيها المخادع ! » .

فقال المهلهل ثابتاً : « الحرب خدعة » .

فنظر الحرث إلى الفند بن سهل وهو واقف بينه وبين أسيره وقال : « لقد هممت لولاك يا أبا مالك . . . . » .

ثم سكت وذهب بعيداً وجلس على صخرة وهو ثائر النفس ، وقد بدا على وجهه أثر الحقد والاضطراب ، ثم أطرق يحدث نفسه ويئن من شدة الغيظ : « وابجيراه ! هل أهدر دمه وقاتله فى يدى ؟ » .

والتفت الفند بن سهل إلى المهلهل وجعل يتأمل وجهه ويتفرس فيه ، ولم يملك نفسه من الإعجاب بمظهر ذلك البطل الدموى الذى

لم يضع سلاحه كل تلك السنين ، ولم يطع فى ثأره الهائل نصيحة ولا توسلا ، وعلت وجهه برغمه ابتسامة خفيفة ثم قال له : « لا أبالى أن أنجو بحياتى كما نجوت يا مهلهل » .

فطعنت هذه الكلمة قلب المهلهل، وأحس صدق تأنيب الشيخ فقال : « ولكنى أطيل حياتى لأطيل فيكم فتكى » .

فسمع الحرث هذه الكلمة ، فكأنما هو وحش رابض أغضبته . فأقبل مسرعا وقد لمعت عيناه بالشر . فأسرع الشيخ الفند فاعترض سبيله وقال له محذراً : « على رسلك يا أبا بجير . لقد ضمنته » .

فصاح الحرث ثائراً : « وحق مناة لا ينصرف عنى هكذا » .

وكان خبر أسر المهلهل قد ذاع فى الجيش وانتشر حتى بلغ النساء فى الحى ، فعلمت به أم الأغر زوجة الحرث ، فأقبلت تسعى فى هلع حتى وقفت إلى جوار الشيخ ثم جعلت تتوسل إليه قائلة : « بعنى أخى ، امنن علىّ به ؛ إن قتله لا يعيد بجيرا بل يزيد قلبى جرحا » .

فتردد الحرث وهدأ غضبه قليلا وتحرك متردداً ثم قال : « إذاً فليدلنى على رجل من قومه أقتله ببجير » .

فذهبت أم الأغر إلى المهلهل ترجوه أن يفعل ما يريد زوجها حتى لا يفتك به ، وصمت المهلهل لحظة وهو مطرق ، ثم رفع رأسه وقد جال على وجهه ظل ابتسامة ، ولكنها كانت ابتسامة غلٍّ وحقد ، وأشار إلى أقصى الفضاء وكان فيه بعض فرسان من

أهل الحفاظ لايزالون يتجاولون ويتحاربون ، وقال للحرث : « أترى ذلك الفارس صاحب العمامة الحمراء ؟ » .

فالتفت الحرث بلهفة إلى حيث أشار المهلهل وقال : « نعم . فمن هو ؟ وهل هو كفء لولدى ؟ » .

فقال المهلهل : « هو امرؤ القيس بن أبان » .

فما كاد الحرث يسمع اسم الرجل حتى وثب على النعامة وقصد إليه ، وما هى إلا لحظات حتى صرعه وقتله ، وعاد راكضا فرسه يصيح : « لا خير فى تغلب بعد امرئ القيس ، لئن فاتنى المهلهل بخداعه فقد اشتفيت بسيد تغلب وشيخها » .

ولم يخل وجه المهلهل من دلالة الارتياح عند ذلك ، فقد كفاه الحرث مؤونة ابن أبان وخلافه عليه ومعارضته لمشيئته فى قومه .

ولما أقبل الليل كان المهلهل طليقاً يسير كاسف البال يتبع آثار قومه الذين ارتحلوا من قضة هاربين نحو الشمال ، وكان كلما مر بشعب من الشعاب رأى جماعة يحملون صريعاً أو يعينون على السير جريحاً ، ويسعون فى آثار قومهم بعد الوقعة الطاحنة .

ولم يخل بيت فى تغلب بعد يوم تحلاق اللمم من بكاء على قتيل ، أو قلق ولهفة على حياة جريح . ولم يقف بهم السير فى هربهم حتى بلغوا أكناف السواد من أرض العراق ، خوفاً من غارات بنى عمهم المنتصرين .

١٤

سار المهلهل من معسكر بكر بعد أن أطلقه الحـٰرث بن عباد وهو يجرر رجليه ، وكان الليـل البهيم يلف الصحراء فى ردائه الأسود ، فلا يظهر منها فى ضوء النجوم الخافت إلا الأفق البعيد خطا متموجا غامضا . وكان يخيل إليه أن ذلك الليل الأسحم يهبط على الأرض فيثقلها ، ويهبط بها إلى أسفل فى الفضاء الفسيح . كان رأسه يميـد به ، وخياله يضطرب ، وأعضاؤه المتعبة المثقلة بالجراح تنبض بالألم كأنها تضج بالأنين . وكان قلبه أثقل على صدره من ذلك الليـل يخفق فى خمود وتباطؤ ، كأن ضرباته خبط ناقة عشواء ضالة فى الظلام .

وجعلت صور حياته تتوارد على ذهنه سراعا ، كما تتوارد الصور على ذهن الغريق . لقد سار بقومه حيناً إلى النصر ، وساد فيهم ما ساد حتى كاد يبلغ فيهم مكانة أخيه كليب ، ومضت عليه السنون وهو يحرز النصر بعد النصر ، ويسفك الدم بعد الدم ، ولـكن ذلك كله لم يرو غلته من الانتقام ، بل كان كلما زاد من القتل والطعن اشـتد ظمؤه إلى القتل والطعن ، حتى صار القتال قصد حياته كلها ، فأنساه المجد والسلطان ، وأغلق قلبه عن الرحمة

والسلام ، ولم يُبق فى قلبه موضعاً لمودة أو رحم . ولم تخمد ثورته لما اعتراه من ضعف ، أو ما أصابه من هزيمة ؛ فقد كان وهو يجرر رجليه بعد خروجه من معسكر الحْرث بن عباد لا يزال يتمثل صور الطعنات التى يدخرها ، والضربات التى يعتزم أن يسددها ، والدماء التى يريد أن يسفكها . كان غليله الثائر لا يزال يضطرم فى قلبه المكدود ؛ لم يزده الخذلان إلا عنفا ، ولم تزده الهزائم إلا قسوة .

ومرت بذهنه صورة بجير بن الحرث ابن أخته المسكين ، وهو يتوسل إليه بالرحم أن يدعه فلا يسفك دمه بغير جريرة ، وتذكر صاحبه الشجاع امرأ القيس بن أبان ، وهو ينصحه ألا يمس الفتى البرىء بسوء وهو ابن أخته ، وتذكر ما جره عليه قتل الفتى من مصائب ، بعد أن ثار أبوه الحرث ثورته . تذكر هذا كله ، ولكن قلبه كان لا يزال يشتعل بالحقد والغِل ، فلم يحس ندما ، بل علت وجهه المتعب بسمة قاسية كأن ذكرى ذلك المنظر قد بعث فيه نشوة وارتياحا . ثم تذكر امرأ القيس بن أبان وهو قتيل عند قِضة ، وتذكر الخيانة التى زل إليها عند ما أباح لحقده أن يخدعه ويملك عليه زمام نفسه فيجعله يدل عليه الحرث بن عباد ، ويشترى بالخيانة حياته . ولكنه لم يحس ندما ، بل علت وجهه بسمة قاسية أخرى ، واهتزت نفسه هزة تشبه أن تكون نشوة وارتياحا ، فإن امرأ القيس كان يخالفه ، ويعصيه وينصحه ،

وما كان أحب إلى نفسه أن يتذكر منظره وهو صريع بيد الحٰرث أبي بجير .

وتنبه المهلهل إلى نفسه فى فترة من فترات الصحو بين هذه الخواطر والوساوس ؛ فعجب لقلبه كيف تبدل حتى أصبح كأنه يطيع شيطانا مشئوما يسوقه فى سبيله ، ولكنه ما كاد يحس هذا اللين يلم به حتى عادت إليه وساوسه وخواطره الدموية ، وغاب فى سيل من ذكريات ضرباته وطعناته .

ومرت فى ضميره سانحة سريعة من الأسف والخجل عندما تذكر خدعته التى خدع بها الحرث واستطاع بها أن ينجو بحياته ، وعندما تذكر ما قاله له الشيخ الشجاع الفند بن سهل ، إذ قال له : « ما أبالى أن أنجو بحياتى كما نجوت يامهلهل » ! لقد كانت سخرية مرة فيها تأنيب وفيها ازدراء ، وما كان أحراه أن يربأ بنفسه عن تلك المذلة ، ولا يشترى الحياة بذهاب الكرامة ؛ ولكنه أغمض عينيه وهز رأسه بعنف كأنه يريد أن يبعد عن نفسه تلك الخاطرة المزعجة ، وجعل يحمل نفسه على تأمل ما يأتى به الغد القريب من وقائع جديدة يجد فيها شفاء جديداً من غليله ، وفرصة أخرى ينكل فيها بعدوه ، ويسفك سيلا آخر من دمائه .

مضى المهلهل فى صحبة هذه الهواجس المظلمة الثائرة ، كأنه كان يحاول أن يختفى فيها عن نفسه ، وأنس إلى ذلك الظلام الثقيل

الذى حوله ، وجعل يتنقل من موضع إلى موضع ، ويفتح صدره لنفحات الليل الرطيبة الباردة ، لعلها تطفئ النيران الثائرة فيه ، وجعل يتأمل النجوم ويحادثها ، تلك النجوم الأبدية التى طلعت على الأجيال جيلا بعد جيل ، واطلعت على اضطراب الإنسان أبد الدهر الطويل ، ثم شهدت فناءه طبقة بعد طبقة ؛ وخيل إليه أنها فى لألائها تضحك ساخرة منه ، أو أنها تضحك ساخرة من ذلك النصر الذى ظل يضطرب من أجله كل تلك السنين ، فإذا به ينهار كما تنهار الرمال ، ولم يترك فى قلبه إلا تلك الوخزة الأليمة التى كان يحسها كلما تذكر أخاه البطل كليبا القتيل ؛ نعم فإن الجرح الذى أصاب فؤاده من مقتل أخيه كان لا يزال مع مر السنين جرحاً داميا وجيعا .

أخذ السير يعرج به فى شعاب الفلاة ، حتى انتهى به أخيراً إلى شِعب خفى فى ثنايا واد عميق ، فسمع به حسًّا ينبعث مثل أصوات فى الحلم . حساً خفياً مضطرباً غامضا .

فسار فى حذر إلى طرف الشعب من وراء ثَنيَّة الوادى وكان الظلام فى داخل الشعب أكثف حُلْكة من الليل ، فلم يستطع أن يتبين أحداً من الجلوس ؛ فوقف وراء صخرة خوف أن يكون هناك بعض أعدائه . وأصاخ بسمعه إلى الحديث وجعل يجهد نفسه فى تمييز الأصوات وتعرف جرسها ونبراتها وخيل إليه أنه

يعرفها . لقد سمع تلك الأصوات من قبل ، فهى بلا شك أصوات شبان من قومه ، كانت ترتفع فى نوادى تغلب لكى تنصره وتهتف باسمه وتحيطه بضجة تشبه أن تكون من ترتيل العبادة والتقديس .

واستمع إلى الحديث ، وكانت الأصوات واضحة فى سكون الليل يزيدها وضوحا هدوء الهواء . وما كاد يقف هناك لحظات حتى كان جسمه يتفصد عرقا . كان الجدال عنيفا ، ولكنه لم يكن بين جانبين يتنازعان ؛ بل كان بين عصبة مجمعة على لومه والحنق عليه وإن تجادلت فى تقدير جرائره .

قال أحدهم : « لقد نصحه امرؤ القيس ألا يقتل بجيراً فلم يطعه بل قتل الفتى المسكين ظلما ولم يشفق من فجيعة أخته أم الأغر فيه » .

وقال آخر : « ولكن أدهى من ذلك أنه لم يستطع أن يقف للحرث بن عباد ولم يمنع نفسه منه . ألم تروه وهو يحمله أسيراً على فرسه ويعدو به وهو ملقى على ظهر جواده كأنه صبى ؟ أى عار جلب هذا الزير على قومه ! »

وقال ثالث : « ولا أشك فى أنه هو الذى دل الحرث على ابن أبان ليقتله . لقد سمعت بعض بنى بكر يتحدثون بهذا وأنا مختف فى الكهف عقب الهزيمة . لقد قالوا إنه دل الحرث على ابن أبان سيد تغلب . وما أراد بخيانته إلا أن يشفى حقده من شيخنا الباسل الذى كان يجادله ولا يبتغى إلا خيركم » .

فعلت من الجمع صيحة إنكار ، وقال أحد الجلوس :

— أوسمعت هذا يا ابن الأجدع ؟

فقال الشاب : « سمعت هذا بأذنى هاتين ، وسيأتيكم مصداق قولى إذا رأيتم المهلهل غداً يسير فى آثاركم . فقد منّ عليه الحرث وأطلقه بعد أن خان له سيد تغلب ثمناً لحياته . نعم لقد اشترى حياته بالعار والخسة » .

فعادت الضجة أعلى وأعنف ، واختلطت بها الأصوات ، وتطايرت فى ثناياها ألفاظ الحنق ، وكان اسم المهلهل يتردد فيها مع أقذع السباب . ثم تجرأ أحدهم فقال : « إنه قد سفك دماءنا فى سبيل دم أخيه الطاغية ، وسرنا وراءه كهولا وشبانا ، وها هو ذا يخوننا ويدل أعداءنا علينا لكى ينجو بحياته » .

فصاح الجمع مضطرباً :

— « القتل له ! القتل للمهلهل ! القتل للخائن الجبان ! » .

فلم يطق المهلهل البقاء ، وتنحي عن موضعه مسرعاً ، وسار وحده وهو لا يدرى ماذا يرى من أمامه ، يتعثر من الاضطراب وقلبه جائش بالألم ورأسه مضطرم بما فيه من الهموم ، حتى إذا اقترب وهو يترنح من خيام قومه قصد إلى خيمة المهجرس ابن أخيه ، وناداه فى احتراس من باب الخباء . فتنبه المهجرس وخرج إليه مسرعاً ، وعرفت سلمى زوجة المهجرس صوت أبيها

المهلهل فخرجت إليه متلهفة .

فلما وقع نظر المهلهل عليهما أشار إلى الهجرس ليتبعه ، وأشار إلى سلمى أن تدخل الخباء فى صمت ، ثم مضى مع ابن أخيه حتى خرجا من بين الخيام وذهبا إلى جانب كثيب من الكثبان القريبة فاستترا وراءه وجعلا يتحدثان .

لم تمض بعد ذلك الاجتماع ساعة حتى كان المهلهل والهجرس يستعدان للنزوح عن قومهما ، وقد عزم المهلهل عزماً لا يتزعزع على أن يترك جوار قوم حدّث بعضهم بعضاً بسبه وتنادوا بقتله ، وخاض جماعة منهم فى عرضه وشرفه وانتقصوا منه وتآمروا عليه . ولم يصحبه فى عزيمة الرحيل إلا طائفة ضئيلة من أهله وعبيده .

وذاعت فى حلل تغلب بعد حين ذائعة من نبأ رحيل المهلهل ، فأسرع جمهور من شيوخها وكهولها إليه ليردوه عن قصده ، ويحاولوا الاعتذار عما أجرم بعضهم فى التطاول عليه ، فلم يُجْدِهم ذلك ، وأصر المهلهل على المسير عنهم بأهل بيته .

وفى بكره الصباح التالى اجتمع الناس رجالا ونساء لينظروا إلى بطلهم النظرة الأخيرة ، ولم يملك المهلهل وهو يلقى عليهم آخر نظراته إذ ينحدر فى سيره وراء الكثبان البعيدة أن يمسح دمعة غلبته ، دمعة الأسى على فراق قوم طالما شاركهم وشاركوه فى مخاطر الحروب وفى نشوة النصر وفى كسرة الهزيمة .

١٥

بعد عامين من ذلك اليوم كان المهلهل يسير وحيداً ، لا رفيق له ولا أنيس ، بعد أن قُتل ابن أخيه الهجرس فى غزوة من غزواته ، وبعد أن قُتل رفاقه القلائل واحداً بعد آخر فى مصادماته العدة مع القبائل التى كانَ يمر بها . وهان أمره فى القبائل حتى اضطر إلى تزويج ابنته الجميلة سلمى مرغما صاغراً من غير أكفائها . ولم يستطع فى ضعفه أن يعاقب خاطبها الجرىء ، بل أجابه إلى زواجها وقلبه يتحرق ، والعجز يخرس لسانه . وأخذ يضرب فى الأرض بعد ذلك وحيداً إلا من عبدين وراحلتين وفرسه المحبوب « المشهَّر » وسيفه ودرعه التى آلى على نفسه منذ أعوام طويلة ألا يخلعها عن جسمه .

كان المهلهل بعد عامين من تلك الحياة المضطربة يسير وحيداً فى صحبة عبديه ، يريد النزول إلى جوار ماء من مياه هَجَر ، بعد أن جفت بقايا الأمطار فى القفر الذى اتخذه موطنا . فمر فى أرض ينزل بها جماعة من بكر — من بنى قيس بن ثعلبة قوم الحرث بن عباد . فسمع عوف بن مالك كبير القوم بمروره وخشى أن يكون قد أقبل عليه مغيرا يطلب غرة فيستاق من الأموال والنعم ما يجد

ثم يمضى سريعاً كما كان يفعل كلما مر بقبيلة من بكر . فأرسل إليه كتيبة صغيرة ترصد له ، حتى إذا ما اقترب منها وقفت تعترض سبيله ، فأسرع العبدان إليه خائفين وقالا وهما يرعدان من الخوف : « هذه جماعة من بكر ! » . فنظر إليهما المهلهل كاسفا وقال كأنه يخاطب نفسه : « أين منى الأحرار ؟ » ثم صاح بهما وقد أشرع رمحه : « تنحيا عنى لا أبا لكما ! » .

ومضى فى سبيله والعبدان يسيران خلفه فى بطء ، وقد انخلع قلباهما . حتى إذا ما صار عند القوم أراد أن يخترق صفهم لا يلتفت إلى يمين ولا إلى يسار ، وغمز فرسه المشهر فى جنبه فاندفع مسرعا حتى خالط الصف ، وأوشك أن ينفذ من بينهم . فثار البكريون لهذه الجرأة واخترطوا سيوفهم واندفعوا إليه فأحاطوا به من كل جانب ، ولكنهم لم يمسوه . فقد كان أمر عوف بن مالك أن يعودوا به أسيراً .

ومضى المهلهل فى سبيله ورفع الرمح فأهوى به على أقرب فارس منه فطعنه فى صدره فألقاه صريعاً . واضطربت الجماعة لحظة ، تمكن المهلهل فى خلالها من أن يخرج من دائرتها ، وأشرع الرمح مرة أخرى وأهوى به على فارس آخر يقصد قلبه ، فتلقى الفارس طعنته فى مجنه ، وأسرع الفرسان فالتفوا حوله مرة أخرى ، وضرب أحدهم رمح المهلهل بسيفه فقصمه وصاح قائلا : « أسلم

نفسك قبل أن نزيل هذا الرأس الأحمق عن جسدك » .

فتكبر المهلهل أن يرد على الرجل ، وأسرع كالبرق فاستل السيف وأهوى به على رأس مخاطبه فأرداه عن فرسه .

فاستشاط الفرسان غضباً واندفعوا نحوه من كل جانب يضربونه بسيوفهم وهو يراوغهم ويتقى ضرباتهم ما استطاع ، يتلقاها على مجنه تارة وعلى درعه تارة أخرى ، حتى ظن القوم أنه قد أعجزهم ، وعولوا على الفتك به فتصايحوا : « لا تبقوا على الوغد ! » .

ولكن المهلهل قاوم ودافع ، حتى كاد يأتى على آخرهم لو لا جراح أصابته نزفت منها دماؤه فأضعفته عن المقاومة ، ومال عن سرجه خائر القوى ، ولا يزال السيف فى يده يقطر من دماء بنى بكر .

فوجد بقية الفرسان عند ذلك فرصة أمكنتهم منه ، فأحاطوا به واستطاعوا أن يحملوه إلى عوف بن مالك وهو بين الحياة والموت .

قضى المهلهل فى أسر عوف أشهراً يرسف فى قيوده ، ولا يجد سلوة إلا فى التغنى برثاء أخيه ، أو تذكر وقعاته فى بنى بكر .

ولم يكن أحد يجرؤ أن يدنو من خيمته إلا امرأة الشيخ عوف ابن مالك وهى من بنات خؤولته اسمها « جبيبة ابنة المجلل » — امرأة شابة جميلة حلوة العينين عذبة الحديث — عطفت على المهلهل

أشد العطف فى محنته ، أكثر مما كانت تكبر بطولته فى حروبه . فكانت تحمل إليه كل يوم طعامه وشرابه ، وتحادثه وتروح عنه ، وكان المهلهل يأنس إليها حيناً ويعرض عنها حيناً ، ويقبل منها طعامها يوماً ويرفضه أياماً ، وهى مع كل ذلك دائبة على العناية به والترفق فى أمره .

وجاءه يوماً رجل من أتباع عوف فدخل عليه خباءه وهو باسم كأنه قد جاءه ببشرى ، وقَرُب منه فجعل يحل وَثاقه ، وهو مطمئن إلى شكره وعرفانه . ولكنه ما كاد ينتهى من إطلاق يمينه من قيدها حتى بادره الأسير العنيف بضربة على أم رأسه كاد الرجل يخر منها صريعاً ، فارتد مسرعاً وهو يتطوح ، حتى إذا ما صار على باب الخيمة صاح به حانقاً : « ما الذى حملك على هذا ؟ وأى جزاء تجازينى على فك قيدك ؟ » .

فرد المهلهل بصره عنه متكبراً ولم يجب .

فذهب الرجل عنه مسرعاً فى غيظ شديد ، وبقى المهلهل صامتاً ينظر إلى أثر حز الحبال المتينة فى معصميه ، وفيما هو يتغنى حزيناً يخاطب نفسه بوصف ذلك الأثر ، أقبلت عليه جبيبة ابنة المجلل ، وهى تنظر نحوه نظرات موزعة بين الإنكار والترفق .

فلما صارت قريبة منه قالت فى رفق : « لم ضربت الرجل وقد أتى يفك وَثاقك ؟ » .

فنظر إليها المهلهل وألان من نظرته ثم قال : « وما الذى حمله على فك ذلك الوثاق ولم يستأذنى قبل فكه ؟ لئن كنت أسيراً فإننى لا أزال أملك هذا القيد من أمرى » .

ثم جعل ينظر إلى معصميه ويحدث نفسه وينشد من شعره فى بكاء كليب . . .

فقالت جبيبة فى نغمة اعتذار : « لقد بعثه إليك ابن عمك عوف ابن مالك وأمره أن يفك قيدك ، وما كان يحسب أن ذلك يسوؤك ، وما يقصد من ذلك إلا التودد إليك ، لعلك تأنس إليه . وقد جاءه اليوم قوم من بنى عمك فأحبوا أن يأتنسوا بك .

فتجهم وجه المهلهل وعقد ما بين عينيه وقال وقد لمع الشر فى نظراته : « وهل كنت لابن عوف نديما ؟ » .

فقالت المرأة ولا تزال فى نغمتها رنة الاعتذار : « لا ! ولكنهم يدعونك للمؤانسة . وهل عليك ضير فى مجالسة قوم من بنى عمك ؟ » .

فأدار المهلهل وجهه عنها وقال مغمغما : « ليس المهلهل بمن يسعى إلى أحد» . ثم جلس فى ركن الخيمة ، وجعل يتغنى حزيناً بمراثيه فى أخيه .

فرأت المرأة أن مراجعة القول لن تجديها شيئاً ، فانصرفت فى صمت وبقى المهلهل يتغنى ناظراً إلى أثر القيود فى يديه .

بعد قليل أقبل ابن عوف ومعه ضيوفه ، حتى وقفوا على باب الخيمة . وتقدم شيخ كبير منهم فقال باسماً : « أتأذن لى يا ابن الكرام ؟ » .

فنظر المهلهل نحوه حيناً وهو لا يميزه ، وغاب لحظة فى تفكيره ثم علت وجهه ابتسامة ضعيفة مترددة ، وقال بصوت خافت : « الفند بن سهل ؟ » .

فقرب الرجل منه وقال وهو واقف إلى جانبه : « نعم الفند ابن سهل . أبيت أن تسعى إلينا فسعينا إليك » .

فاعتدل المهلهل مرتاحاً إلى حديث الرجل ، ونادى الفند يخاطب إخوانه الواقفين دون باب الخيمة فقال :

« لا بأس عليكم يا قوم ، فقد أذن لنا المهلهل » .

فدخل القوم وجلسوا فى جوانب الخيمة ، ودخل معهم عوف ابن مالك ، فانتحى جانباً وهو صامت .

وتبسط المهلهل فى حديثه مع الفند ، ثم امتد الحديث إلى سائر الجلوس ، وكأن المهلهل قد نسى ما هو فيه من أسر وضيق وذل ؛ فجعل يحدث القوم ويرحب بهم ويؤانسهم بالتحية كأنهم ضيوفه ، وكأنهم قد نزلوا عليه فى بعض رحابه .

وبعد ساعة جاءت جفان اللحم والثريد ، ووضعت السنام

مشوية مع الـكبد فى صحفة جعلت بين يدى المهلهل ، وحملت الخمر فأديرت على الحاضرين فى كؤوس من نحاس ، وأقبل الجميع على السمر فى خيمة المهلهل كأنهم فى وليمة حافلة .

هكذا أراد الضيوف ، ولم يستطع عوف بن مالك أن يضن بمطلب طلبه منه زائروه .

وأراد المهلهل أن يمتنع عن مشاركة القوم فى شرابهم براً بقسمه الذى أقسمه عنـد قتل أخيـه . ولـكن شيئاً غلبه على امتناعه فجعله يرضى بمقاسمة القوم شرابهم . أ كان ذلك ليأسه من متابعة النضال ؟ أم كان لاقتناعه بأنه قد أدرك ثأر كليب ؟ أم كان لأنه لم يقدر على مقاومة إغراء رائحة الزقاق التى حرم مذاق راووقها الصافى تلك السنين العدة بعد أن كان لا يصبر عنها يوما ؟ مهما يكن من ذلك فقد أقبل على الشرب وانحلت منه عقدة الهم ، وعاد اللون إلى وجهه ، وانبسطت أساريره ، وكسته ابتسامة وديعة ، وضرب مع الجلوس فى الحديث .

وتحدر السمر وتصعد فى شعاب وشجون ، وكان القوم يصغون فى شوق إلى أقوال المهلهل ويستملحون قصصه ويسـتعذبون أشعاره ، ثم دارت الخمر فى رأسه فتدفق فى إنشاده وانساب فى حديثه حتى صار هو وحده متكلم القوم . ولـكنه لم يلبث أن نسى موضعه وحاله . وجعل يتذكر مواقعه فى بكر ، وينشـد من

أشعاره مفاخراً بقومه ، متغنياً بمن قتل من سادات بكر وشيوخ قيس بن ثعلبة .

ثم قام فى حماسة كأنما قد خيل إليه أنه واقف فى صفوف تغلب يذمرهم للحرب ويحرضهم على الاستبسال فى الهجوم ، وأخذ يشير بيديه ناظراً إلى الفضاء الفسيح الذى دون الخيمة وجعل ينشد :

شفيت النفس من أبنـاء بكر ... وحكَّت بَرْكَها بينى عباد

إذا ما الخيل بالأشكال جالت ... وفى لَباتها الأسل الصواد

وثار النقع بينهم وثارت ... لهـا أُسْد على أُسْد عواد

بضرب تشخص الأبصار منه ... وطعن مثـل أفواه المزاد

فنظر إليه الجلوس ووجموا ، ثم نظروا إلى عوف بن مالك فإذا به مربدّ الوجه ، محمرّ العينين ، وإذا به يقبض على سيفه وينفث من غيظه كما تنفث الحية .

وأراد أحد الضيوف أن يخفف من وقع الأمر ، فقال للمهلهل فى لهجة المداعبة : « ألا تقول لنا شيئاً من غزلك يا مهلهل ؟ » .

فمضى المهلهل كأنه لم يسمع قول الرجل ، وتحولت رنة صوته حتى صارت كأنها صيحة حرب وقال :

رب خيل لقيتهـا لا أبالى ... حيث ألقى كماتهـا مغوارا

إننـا معشر إذا ما غضبنا ... ضاقت الأرض نقتفى الآثارا

إن أقمنا أقامت الناس طوعا ... أو أردنا الحروب سرنا جهارا

وعند ذلك لم يطق عوف بن مالك صبراً ؛ فنهض فجأة وصرخ قائلا : « أيفخر العبد علينا فى ديارنا ؟ » .

ثم خرج وهو يضطرب من الغيظ ، وقد وضع يده على مقبض سيفه وسار يخطو خطواً سريعاً حتى بلغ خيمته ، وسار القوم جميعاً فى أثره وتركوا المهلهل قائما وحده ينشد ويتغنى ، ويفخر بما أنزل بالبكريين من ويلات .

حاول الضيوف أن يعتذروا إلى عوف مما سببوه له من الإهانة ، وأرادوا أن يخففوا عنه وقع أشعار المهلهل . ولكنه لم يسكن ، بل استمر على اضطرابه وصخبه فى فناء خيمته وهو يسير ذهاباً وجيئة فى هياج .

ثم وقف فجأة وقال : « لقد كان أولى لنا لو تركناه فى قيوده ، ولكن هذه الرقة التى حملتكم على مجالسته قد حرضته علينا . وها أنتم أولاء سمعتموه يتغنى بسب قومى . وحق مناة ليموتن أشنع ميتة ماتها رجل ! لا يذوقَنّ طعاماً ولا شراباً حتى يرد زبيب ! » .

وكان زبيب فحلا قويا من الإبل لا يرد الماء إلا كل عشرة أيام .

فى الليلة الثانية بعد ذلك اليوم كانت جبيبة ابنة المجلل تسير فى الظلام خلسة وهى خائفة والهة ، حتى بلغت خيمة المهلهل ، فنظرت حولها خشية أن يراها أحد ، فلما لم تجد أحداً دخلت

مسرعة حتى جاءت إلى الأسـير وجعلت تفك قيوده وتقطعها بسكين أخرجتها من طيات ثيابها .

ونظر إليها المهلهل متعجبا أول الأمر ، ثم سألها فى دهشة : « ماذا تفعلين يا أم عمرو ؟ » .

فقالت المرأة هامسة : « قم ! أسرع ! أسرع قبل أن تهلك» .

فلم يتحول المهلهل من موضعه بل سألها : «ماذا تقصدين ؟»

قالت جبيبة : « قم ! إنك لن تذوق طعاما ولا شرابا حتى يرد زبيب . إنك هالك لا محالة ! هكذا حلف عوف بن مالك . قم ! أسرع ! » .

ولـكن المهلهل بقى فى موضعه لم يتحرك . فعجبت المرأة وقبضت على ذراعه وحاولت أن ترفعه وتدفعه وهى تهمس فى هلع : قم !

فجذب المهلهل نفسه بعنف وقال : « اذهبى عنى ، لن أشترى حياتى بالذِّلة مرتين ، أأهرب حتى أجعلك فداء وأتستر من ورائك لـكى تلاقى غضب زوجك الحانق عنى ؟ » .

فوقفت المرأة متعجبة حينا ، وأرادت أن تعاود الـكرة عليه فى الإلحاح ، فنظر المهلهل إليها واجما وقال : « قلت لك اذهبى عنى ، اذهبى قبل أن أصيح فى الحى منذراً بمكانك » .

فلم تجد جبيبـة بداً من الذهاب وخشيت افتضاح أمرها ، فأسرعت راجعة إلى خيمتها وهى تترجح بين الغضب والخيبة .

لم يسمح عوف بن مالك لأحد أن يذهب إلى خيمة المهلهل إلا بعد أن ورد زيب ، بعد عشر ليال . ثم ذهب إليه ليراه فإذا به قد هلك من الجوع والعطش . ولم يملك نفسه عندما وقعت عينه عليه من أن يخشع ويحزن كما يخشع الصائد وهو يرى الأسد صريعا .

ووقف ينظر إلى عبديه وهما ينزعان عنه دروعه لأول مرة بعد أن بقيت على جسده سنين طويلة لم يخلعها ، وكانا كلما نزعا منها قطعة صحبتها رقعة من جلده الذى لصق بها . ولكنه عند ما نظر إلى يديه ورجليه لم يجد فيهما قيداً ولا وثاقاً فصاح بالعبدين قائلا : « من نزع القيد والوثاق عنه ؟ لقد أردت أن أدفنه فى قيوده » .

فنظرا إليه حائرين ولم يجيبا .

فرفع يده بالسيف إليهما مهدداً وكاد يهوى به عليهما ، فدخلت امرأته عند ذلك مسرعة ، وهى تصرخ : « لا تفعل يا أبا عمرو ! لا تفعل ! » .

فنظر الرجل إليها متعجبا وقال فى غضب : « خلى سبيلى ! مالك والعبدين ! » .

فقالت المرأة فى هلع وهى مندفعة اندفاع اليائس : « لقد فككتها أنا ! أنا التى فككت قيوده » .

فصاح بها الرجل المخيف قائلا : « أنت ؟ أيتها الخائنة ! » .

فتعلقت به المرأة باكية وقالت : « أليس ابن عمتى ؟ رأيته

يموت فلم يطاوعنى قلبى أن أرى بطل تغلب يتلوى يصارع الموت جوعا وعطشا ، فحللت قيوده وتضرعت إليــه أن يهرب » . ثم سكتت لحظة وأجهشت بالبكاء وقالت فى نشيجها : « ولــكنه أبى وآثر الموت » .

فسكن غضب عوف قليلا ، ثم قال فى دهشة : « لم يرض أن يهرب ؟ » .

فقالت المرأة باكية : « لقد أبى ، وقال لا أشترى الحيــاة بالذلة مرتين » .

فوقف عوف صامتاً لحظة ، ثم وضع سيفه فى قرابه ، ونظر إلى المهلهل نظرة طويلة ، وجعل يتأمل جسمه الضعيف النحيل ، وجلده المقطع ودرعه التى علاها الصدأ ، ثم تنفس نفساً عميقا ، وقال فى حزن : « أبى المهلهل إلا أن يموت كريما ! مات سيدَ ربيعة » .

ثم أشار إلى العبدين أن يترفقا بالجسد المحطم الذى يجهزانه ، وذهب إلى قومه لينعى إليهم المهلهل ، ويستعد لإقامة المأتم لعدوه البطل . ولم يضن عليه بدمعة حسرة وهو منصرف من باب خيمته الساكنة